www.kotobarabia.com

سلسلة الكتاب الاشتراكي - العدد الرابع

كيف تعمل الماركسية؟

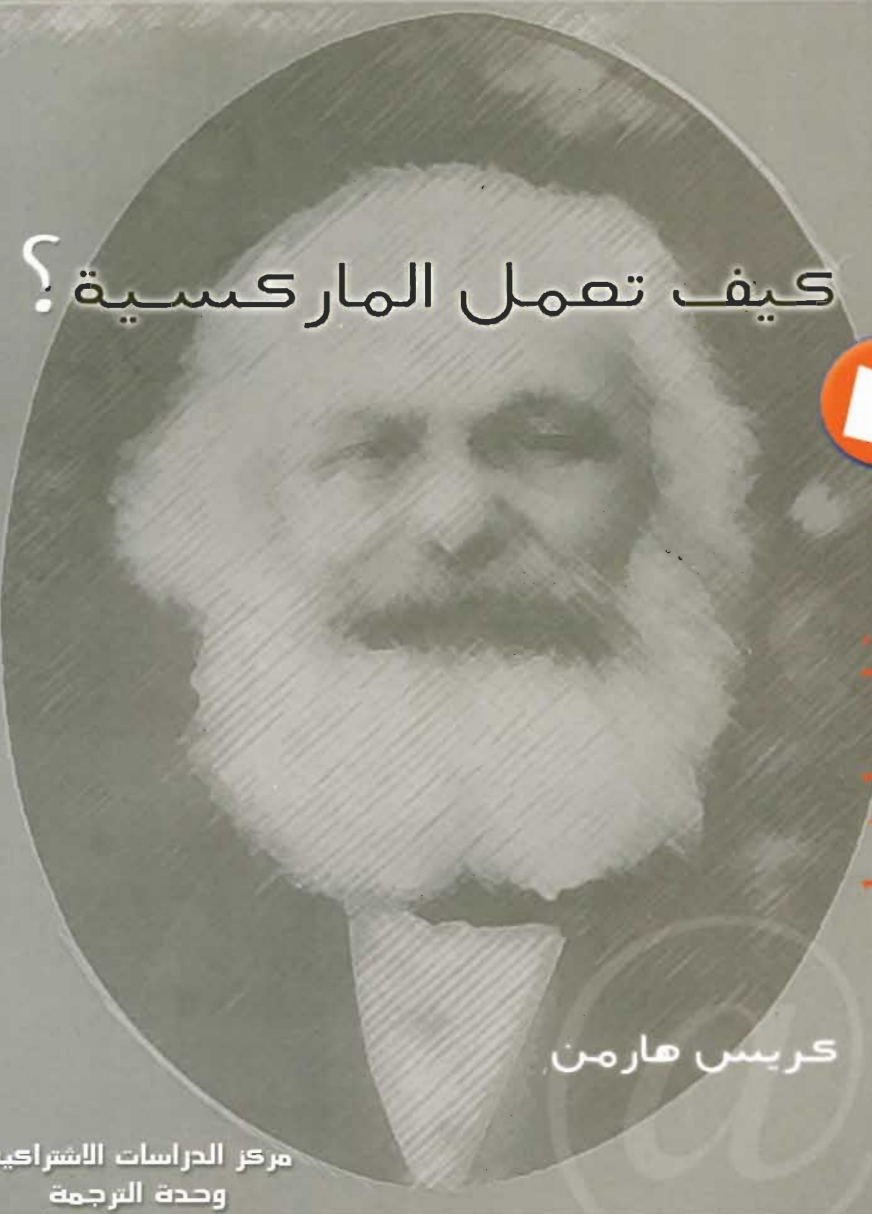

كريس هارمن

www.kotobarabia.com

مركز الدراسات الاشتراكية
وحدة الترجمة

كيف تعمل الماركسية؟

كريس هارمان

فهرس

مقدمة ٤

الفصل الأول لماذا نحتاج النظرية الماركسية؟ ٨

الفصل الثاني فهم التاريخ ٢٠

الفصل الثالث الصراع الطبقي.. ٤٢

الفصل الرابع الرأسمالية: كيف بدأ النظام........................... ٥٨

الفصل الخامس نظرية العمل للقيمة.................................. ٧٩

الفصل السادس كارثة اقتصادية ٩٣

الفصل السابع الطبقة العاملة ١٠٥

الفصل الثامن كيف يمكن تغيير المجتمع؟ ١١١

الفصل التاسع كيف يصبح العمال ثوريين؟ ١٣٠

الفصل العاشر الحزب الاشتراكي الثوري ١٣٦

الفصل الحادي عشر لإمبريالية والتحرر الوطني ١٤٣

الفصل الثاني عشر الماركسية والنسوية.............................. ١٥٦

الفصل الثالث عشر الاشتراكية والحرب............................... ١٦٤

مقدمة

هناك اسطورة واسعة الانتشـار تقـول ان الماركسـية صعبة.

وهى اسطورة يتم الدعاية لها من قبل اعداء الاشتراكية - مثلا هارولد ويلسون زعيم حزب العمال البريطانى السابق الذى يفاخر بانته لم يستطع ابدا ان يقرا اكثر مـن الصـفحة الاولى من كتاب كارل ماركس "راس المال".

وهى ايضا اسـطورة يشـجعها صـنف خـاص مـن الاكاديميين الذين يعلنون عن انفسهم كماركسيين:

فهم يزرعون عمدا جمل مبهمة وتعبيرات غامضة مـن اجل اعطاء الانطباع انهم يمتلكون معرفة خاصة لايمتلكهـا الاخرون.

لذلك لايثير الدهشة ان العديد من الاشـتراكيين الـذين يعملون ٤٠ ساعة فى الاسبوع فى المصـانع والمنـاجم او المكاتب ياخذونه امرا مسلما به ان الماركسية شىء لايمكـن ان يكون لديهم الوقت او الفرصة لفهمه.

في الحقيقة ان الافكار الرئيسية للماركسية بسيطة للغاية.

فهى تفسر المجتمع الذى نعيش فيه كما لا تستطيع اى منظومة اخرى من الافكار. وهى تعطى معنى لعالم خربته الازمات، لما فيه من فقر في وسط الوفرة، لانقلاباته وديكتاتورياته العسكرية، و للطريقة التى يمكن بها ان ترسل بعها الاختراعات الرائعة الملايين لطوابير الإعانات والصدقات، للديمقراطيات التى تمول من يقومون بالمذابح وللدول الاشتراكية التى تهدد شعوب بعضها بالأسلحة النووية.

في نفس الوقت، فان مفكري النظام الذين يسخرون من الأفكار الماركسية يطاردون بعضهم البعض في لعبة التخصص الأعمى المجنونة بشكل لا يفسرون ولا يشرحون به شيئا.

إلا انه على الرغم من أن الماركسية ليست صعبة تواجه من يقرا كتابات ماركس للمرة الأولى مشكلة. فكل ما كتبه ماركس كان منذ اكثر من قرن مضى.

فاستخدم لغة عصره، بشكل كامل بالرجوع للأفراد والأحداث التي كانت وقتها معروفة للجميع بينما الآن لا يعرفها إلا المؤرخون المتخصصون.

واتذكر حيرتى الشخصية - عندما كنـت بالمدرسـة - عندما حاولت قراءة كراس ماركس الثامن عشر من برومير لويس بونابرت. فلم اكن اعرف ماذا تعنى برومير او مـن يكون بونابرت. وما اكثر الاشتراكيين الـذين تخلـوا عـن محاولاتهم للامساك بالماركسية بعد مثل هذه التجربة!!

هذا هو المبرر وراء هذا الكتاب القصير.

فهو يسعى لتقديم مقدمة للافكار الماركسية تجعـل مـن السهل على الاشتراكيين ان يتابعوا ما كان ماركس بصـدده وان يفهموا تطور الماركسية من وقتها على يـد فريـدريك انجلز وروزا لوكسمبورج وفلاديمير لينين وليون تروتسـكى و جمهرة كاملة من المفكرين الاقل شانا.

اغلب هذا الكتيب ظهر لاول مرة على شـكل سلسـلة مقالات فى جريدة "العامل الاشتراكى" بعنـوان "الماركسـية مبسطة". لكننى اضفت مادة جوهرية حديثة.

قليل منها جئت به بالجملة من محاولتين سابقتين لتقـديم عرض مبسط للافكار الماركسية: كتاب دنكان هالاس " معنى الماركسية" و " السلسلة التعليمية الماركسية" لفـرع حـزب العمال الاشتراكيين البريطانى فى نورويتش.

نقطة اخيرة، هى ان ضيق المساحة منعنى من التعرض لبعض الاجزاء الهامة من التحليل الماركسى للعالم المعاصر. ويحتوى ملحق هذا الكتيب على مراجع للمزيد من القـراءة حولها.

الفصل الأول

لماذا نحتاج النظرية الماركسية؟

فيم نحتاج النظرية؟ نحن نعلم ان هناك ازمـة، ونحـن نعلم ان اصحاب العمل ينهبوننا، واننا كلناغاضبون، وأننا في حاجة للاشتراكية..أما ماعدا ذاك فلندعه للمثقفين.

كثيرا ما تسمع كلمات كهذه من مناضـلين اشـتراكيين ونقابيين.

ويتم دعم وتشجيع مثل هذه الآراء بكل قوة من جانـب أعداء الاشتراكية، الذين يحاولون إعطـاء الانطبـاع بـأن الماركسية هي تعاليم غامضة ومعقدة ومملة. إنهم يقولون إن الأفكار الاشتراكية "مجردة".

وقد تبدو هذه الأفكار جيدة نظريا، أما على أرض الواقع فإن الحس السليم يخبرنا بشيء مختلف كليا.

تكمن مشكلة هذه الأطروحات في أن أصحابها عادة ما تكون لهم " نظرية" فعلا، وإن كانوا يرفضـون الاعتـراف بذلك.

اسألهم أي سؤال عن المجتمـع، وسـتجدهم يحـاولون الإجابة بتعميم أو بآخر. وإليك بعض الأمثلة:

" الناس أنانيون بطبعهم"، "لولا الأغنياء لما كانت هناك نقود لتوفير العمل للباقين"، " لو أننا فقـط اسـتطعنا تعلـيم العمال، سيتغير المجتمع"، " تدهور الأخلاق هو الذي أوصل البلاد لما هي عليه اليوم".

أنصت لما يقال في الشـارع والأتـوبيس والمطعـم، وستسمع العشرات من هذه الأقوال، التي يتضمن كل منهـا رأيا حول أسباب الحالة الراهنة للمجتمع وكيفية تحسين الناس لظروفهم. إن مثل هذه الآراء هي كلها " نظريـات" حـول المجتمع.

عندما يقول الناس انهم ليس لديهم نظرية، فإن ما يعنونه حقيقة هو أن آرائهم ليست واضحة.

إن ذلك خطير بشكل خاص بالنسبة لمن يحاول تغييـر المجتمع. فالجرائد والراديو والتليفزيون تحاول جميعها ملء عقولنا باستمرار بتفسيرات لحالة المجتمع المضطربة.

وهم يأملون أن نقبل بما يقولونه دون أن نفكـر أكثـر حول القضايا نفسها.

إلا أنك لا تستطيع أن تحاررب بفعالية لتغيير المجتمع ما لم تتعرف على ما هو خاطيء فـي تلـك الأطروحـات المختلفة.

ظهر ذلك لأول مرة قبل ١٧٠ سـنة. ففـي ثلاثينـات وأربعينات القرن التاسع عشر، أدى نشـوء الصـناعة فـي مناطق مثل شمال غرب انجلترا إلى دفع مئات الآلاف مـن الرجال والنساء والأطفال للعمل مقابل أجور بخسة.

وكان عليهم تحمل ظـروف معيشـية بائسـة بشـكل يستعصي على التصديق.

وبدأ هؤلاء النضال ضد تلك الأوضاع مع ظهـور أول منظمات عمالية جماهيرية ـ أول نقابات ـ والتي كانت مثلا فير بريطانيا مهد الثورة الصناعية الحركـة الشـارتية (أول حركة من أجل الحقوق السياسية للعمال).

وسرعان ما ظهرت مشكلة كيفية تحقيق الحركة العمالية لأهدافها.

قال بعض الناس إنه من الممكن إقناع حكـام المجتمـع بالتغيير من خلال الوسائل السلمية.

فمن شأن " القوة المعنوية" لحركة سلمية جماهيرية أن تكفل إعطاء مكاسب للعمال.

وقد قام مئات الآلاف من الناس بتنظيم أنفسهم والتظاهر والعمل من أجل بناء حركة على أساس تلك الآراء - لكي يواجهوا في النهاية الهزيمة والإحباط.

أدرك البعض الآخر الحاجة لاستخدام " القوة المادية"، إلا أنهم اعتقدوا بإمكانية تحقيق ذلك بواسطة مجموعات متآمرة صغيرة منفصلة عن بقية المجتمع. قاد هؤلاء أيضا عشرات الآلاف من العمال نحو صراعات انتهت أيضا بالهزيمة والإحباط.

كما اعتقد آخرون أن بإمكان العمال تحقيق أهدافهم عن طريق الفعل الاقتصادي، دون مواجهة الجيش والشرطة. ومرة أخرى أدت أفكارهم لنضالات جماهيرية. شهدت انجلترا في ١٨٤٢ أول إضراب عام في العالم، وقد وقع في المناطق الصناعية في الشمال، حيث ثابر عشرا الآلاف من العمال على الإضراب لأربعة أسابيع إلى أن أجبرهم الجوع والحرمان على العودة للعمل.

وبقرب نهاية المرحلة الأولى من النضـالات العماليـة المهزومة أقدم الاشتراكي الألماني كارل ماركس على طرح أفكاره مكتملة في كتيبه " البيان الشيوعي".

لم تأت أفكاره من الهواء، بل حاولـت تـوفير أسـاس للتعامل مع كافة الأسئلة التي أثارتها الحركة العمالية في ذلك الوقت.

إن الأفكار التي طرحها ماركس لا تزال صالحة اليوم. ومن الحماقة القول، كما يفعل بعض الناس، بان هذه الأفكار قد عفا عليها الزمن لأن ماركس كتبهـا قبـل ١٥٠ عامـا. فالواقع أن كافة الأفكار التي جادلها ماركس حول المجتمع ما تزال واسعة الانتشار للغاية. ومثلما تجادل الشارتيون حـول القوة المعنوية أو القوة المادية، يتجادل الاشـتراكيون اليـوم حول " الطريق البرلماني" أو " الطريق الثـوري". وداخـل صفوف الثوريين لا يزال الجدال محتدما حول " الإرهـاب" تأييدا أو رفضا، بنفس حيويته سنة ١٨٤٨.

المثاليون لم يكن مـاركس أول مـن حـاول وصـف مشكلات المجتمع. ففي الوقت الذي كان يكتب فيـه، كانـت الاختراعات الجديدة في المصانع تخلق ثروة على نطاق لـم

يكن بوسع الأجيال السابقة أن تحلم به. ولأول مرة بدا أن الإنسانية لديها وسائل الدفاع عن نفسها ضد الكوارث الطبيعية التي كانت جلاد العصور السابقة.

ومع ذلك فإن هذا لم يعن أي تحسن في حياة غالبية الناس.

بل على العكس تماما كانت حياة الرجال والنساء والأطفال الذين عملوا في المصانع الجديدة أسوأ كثيرا من حياة أجدادهم الذين كانوا يكدحون في الأرض. فأجورهم كانت بالكاد تبقيهم فوق حد الكفاف، في حين كانت موجات البطالة الواسعة تدفع بهم تحت هذا الحد كثيرا.

وكانوا يحشرون في أحياء بائسة وقذرة تفتقد للشروط الصحية السليمة، حيث يتعرضون لأوبئة بشعة.وبدلا من أن يؤدي تطور الحضارة إلى السعادة والرفاهية العامة، فإنه كان يخلق بؤسا أكبر.

لم يلحظ ذلك ماركس فقط وإنما أيضا بعض المفكرين العظام الآخرين في تلك الفترة - رجال مثل الشاعرين الإنجليزيين بليك وشيلي، والفرنسيين فورييه وبرودون، والفيلسوفين الألمانيين هيجل وفيورباخ.

أطلق هيجل وفيورباخ وصف " الاغتراب" على الحالـة البائسة التي وجدت الإنسانية نفسها فيها - وهـي كلمـة لا نزال نسمعها كثيرا. كان ما عناه هيجل وفيورباخ بالاغتراب هو أن الرجال والنساء يجدون أنفسهم باستمرار تحت سيطرة وقهر قوي صنعوها بأنفسهم. وكلما تقدم المجتمع، كلمـا زاد الناس بؤسا و"اغترابا".

أخذ ماركس في كتاباته المبكرة فكرة الاغتـراب هـذه وطبقها على حياة أولئك الذين يخلقون ثروة المجتمع. "يزداد العامل فقرا مع زيادة الثروة التي ينتجها، وزيادة إنتاجه قـوة وتنوعا..ومع زيادة قيمة عالم الأشياء تنخفض بشكل طردي قيمة عالم البشر...

فالشيء الذي ينتجه العمل يواجهه كشيء مغترب، كقوة مستقلة عن المنتج.."

في زمن ماركس كان الفهم الأوسع انتشـارا لمشـكلة المجتمع لا يزال دينيا. كان يقال إن البؤس يعود إلى عجـز الناس عن اتباع تعاليم الله. ولو أننا جميعا " نبذنا الخطيئـة" فإن كل شيء سيصبح على ما يرام.

كثيرا ما نسمع رأيا مماثلا هذه الأيام، وإن كان عادة لا يتخذ شكلا دينيا.

ويتمثل ذلك في الزعم بأنك " لكي تغير المجتمع، عليك أولا أن تغير نفسك". إذا ما طهر الرجال والنسـاء الأفـراد أنفسهم من " الأنانية" أو " المادية" (أو أحيانا السلبية والـلا مبالاة) فإن المجتمع سيصبح أفضل على الفور.

أحد الآراء القريبة من هذا تحدث لا عـن تغييـر كـل الأفراد، وإنما فقط البعض منهم ـ أولئك الـذين يمارسـون السلطة في المجتمع. كانت الفكـرة هـي جعـل الأغنيـاء والأقوياء " يرون حكم العقل".

بدأ أحد هؤلاء الاشتراكيين البريطانيين، روبرت أوين، بمحاولة إقناع رجال الصناعة (أصـحاب المصـانع) بـأن يكونوا أكثر عطفا على عمالهم.

لا تزال نفس الفكرة مسيطرة اليوم داخل صفوف قيادات الأحزاب الإصلاحية مثل حزب العمال البريطاني ـ بما في ذلك جناحه اليساري.

لاحظ كيف أنهم دائما ما يصفون جرائم أصحاب العمل بأنها " أخطاء"، كما لو أن بعض الحجج يمكن أن تقنع كبـار رجال الأعمال بتخفيف قبضتهم على المجتمع.

وصف ماركس كافة تلك الآراء بأنها " مثالية".

ولم يكن ذلك لأنه ضد أن يكون للناس " مثل" أو أفكار، وإنما لأن تلك الآراء ترى الأفكار بمعزل عن الشروط التي يعيش في ظلها الناس.

ترتبط أفكار الناس بصلة وثيقـة بنـوع الحيـاة التـي يعيشونها. خذ مثلا " الأنانية". إن المجتمع القائم اليوم يولـد الأنانية - حتى بين الناس الذين يحاولون علـى الـدوام أن يقدموا غيرهم من الناس على أنفسهم. فالعامل الذي يريد أن يقدم أفضل ما عنده من أجل أولاده، أو لكي يـوفر لوالديـه شيء إلى جانب معاشهم، يجد أن السبيل الوحيد أمامـه هـو الصراع دوما ضد الآخرين - من أجل وظيفـة أفضـل، أو مزيد من الأجر الإضافي، أو لكي يتقدم صفوف الحصـول على إعانات البطالة. في مجتمع كهذا، لا يمكن التخلص من " الأنانية" أو " الجشع" بمجرد تغيير عقول الأفراد.

ولعله أكثر حمقا الحديث عن تغيير المجتمع عن طريق تغيير أفكار " أناس القمة". لنفرض أنك نجحت في كسب صاحب عمل كبير للأفكار الاشتراكية وأنه توقف عن استغلال العمال.

كل ما هنالك أنه سيخسر في المنافسة مع أصحاب العمل الآخرين، وسيدفع به ذلك خارج السوق. وحتى بالنسبة لمن يحكمون المجتمع، فإن المهم ليس هو الأفكار، وإنما بنية المجتمع التي يتبنون داخلها هذه الأفكار.

يمكن طرح هذه النقطة بطريقة أخرى.

وإذا كانت الأفكار هي التي تغير المجتمع، فمن أين تأتي الأفكار؟

إننا نحيا في مجتمع من نوع محدد. والأفكار المطروحة في الصحافة والتليفزيون ونظام التعليم تدافع عن هذا النوع من المجتمع.

فكيف إذن يكون بوسع الأفراد أن يطوروا أفكارا مختلفة تماما؟

لأن خبراتهم اليومية تناقض الأفكار الرسمية للمجتمع.

وعلى سبيل المثال، أنت لا تستطيع أن تفسـر أسـباب الانخفاض الكبير في أعداد المتدينين اليوم بالمقارنة بما كان عليه قبل مائة عام بمجرد نجاح الدعاية الإلحادية. فعليك أن تفسر لماذا ينصت الناس للأفكار الإلحادية بشكل لم يفعلـوه قبل مائة عام.

وبالمثل إذا أردت أن تفهم تـأثير " الرجـال العظـام"، فعليك أن تفسر لماذا يقبل الآخرون اتبـاعهم. ومـن غيـر المجدي مثلا القول بان نابليون أو لينين غيروا التاريخ، دون أن نفهم لماذا كان ملايين الناس راغبـين فـي القيـام بمـا اقترحاه. فهما في النهاية لم ينوموا الناس مغناطيسيا. إن شيئا في حياة المجتمع في وقت معين دفع الناس للشعور بان مـا اقترحاه بدا صحيحا.

تستطيع فقط أن تفهم كيف تغير الأفكار المجتمع إذا مـا فهمت من أين تأتي هذه الأفكار ولماذا يقبلها الناس.

ويعني ذلك النظر لأبعد من الأفكار إلى الظروف المادية للمجتمع الذي تنشأ الأفكار داخله. ولهذا أصر ماركس علـى مقولته:"

ليس الوعي هو الذي يحدد الوجود الاجتماعي، وإنمـا الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي".

الفصل الثاني
فهم التاريخ

إن الأفكار المجردة لوحدها لا يمكنها أن تغير المجتمع. لقد كانت هذه الحقيقة من أهم الخلاصات التي توصل إليهـا ماركس.

ومثل عدد من المفكرين الذين سبقوه، أصـر مـاركس على أنه من أجل فهم التاريخ يجب أن ترى البشر كجزء من العالم المادي.

يتحدد سلوك الإنسان بالقوى المادية، مثله في ذلك مثـل سلوك أي كائن طبيعي آخر.

لقد كانت دراسة التاريخ الإنساني جزءا مـن الدراسـة العلمية للعالم الحي.

وأطلق على المفكرين الذين تمسكوا بوجهات النظر هذه بـ الماديين.

اعتبر ماركس المادية خطوة عظيمة للأمـام بالمقارنـة بالتصورات الدينية والمثالية الأخرى في التاريخ.

فلقد عني ذلك أنك تستطيع أن تتناقش بشكل علمي فيما يتعلق بتغيير ظروف المجتمع وبأنك لا تعتمد في ذلك مـرة أخرى على الصلاة لله أو على "التغير الروحي" للناس.

فاستبدال المثالية بالمادية كان معناه اسـتبدال الخرافـة بالعلم.

ولكن مع ذلك، فليست كل التفسيرات الماديـة لسـلوك الإنسان صحيحة. فكما كانت هناك نظريات علمية خاطئة في علوم الأحياء أو الكيمياء أو الفيزياء، كانـت هنـاك أيضـا محاولات خاطئة لتطوير نظريات علمية خاصة بالمجتمع.

وفيما يلي سنقدم بعض الأمثلة:

من الأفكار المادية غير الماركسية الشائعة هي أن البشر لا يتعدوا كونهم حيوانات تتصرف بشكل "طبيعي" وفي أشياء معينة.

فكما أن القتل هو طبيعة الثعالب أو أن الوداعـة هـي طبيعة الخرفان، فأيضا من طبيعة البشر أن يكونوا عدوانيين ومتسلطين ومتنافسين وطماعين؛ (ومن ذلك نستنتج أن النساء هن بطبعهن مـاكرات وخاضـعات ومراعيـات للآخـرين وسلبيات).

ويمكن أن نجد أفضل رأي حول ما سبق في كتاب القرد العاري.

وخلاصة ما نخرج به من مثل تلك الأفكار ما هـي إلا ردود فعل متباينة.

فإذا كان البشر بطبيعتهم عدوانيين، فالنتيجة إذن هي أنه لا يوجد منطق من محاولة تطوير المجتمع. فالأوضاع لـن تتغير أبدا، والثورات سوف "تفشل دائما".

ولكن، في الحقيقة، نجد أن "طبيعة الإنسان" تتغير مـن مجتمع إلى آخر.

فعلى سبيل المثال، التنافس الذي يعتبر شيء مسلّم بـه في مجتمعنا، لم يكن موجودا تقريبا فـي مجتمعـات كثيـرة سابقة.

فعندما حاول العلماء أن يجروا اختبارات الذكاء لفئة من الهنود تدعى السيوكس، وجدوا أن الهنود لا يفهمون لماذا لا يستطيعون أن يساعدوا بعضهم البعض في حلّ الأسئلة.

فالمجتمع الذي عاشوا فيه كان يؤكد على قيمة التعـاون وليس المنافسة.

ونجد الحكاية متشابهة مع فكرة العدوانية.

فعندما قابل الإسكيمو الأوربيين لأول مرة، لم يستطيعوا أن يفهموا على الإطلاق معنى "الحرب". ففكـرة أن هنـاك مجموعة من البشر تريد إبادة مجموعة أخرى كانـت فكـرة مجنونة بالنسبة لقبائل الإسكيمو.

وفي مجتمعنا، من "الطبيعي" بالنسبة لنا أن الآباء يجب أن يحبوا ويحموا أبناءهم. ومع ذلك نجد أنـه فـي مدينـة إسبرطة الإغريقية القديمة كان من "الطبيعي" أن يترك الآباء أطفالهم في الجبال لوحـدهم لكـي يعرفـوا إذا مـا كـانوا سيستطيعون تحمل البرد القارص.

وهكذا، فإن فكرة "الطبيعة الإنسانية التي لا تتغيـر" لا تقدم تفسيرا للأحداث التاريخية الهامة. فأهرامات مصـر، أو روعة اليونان القديمة، أو إمبراطوريات روما أو الإنكـاس، أو المدينة الصناعية الحديثة، توضع كلها على نفس الدرجـة مع الفلاحين الأميين الذين عاشوا في الأكواخ الطينيـة فـي العصور المظلمة.

ويعتبر الشيء الهام الوحيد في هذه النظرية هو "القـرد العاري" - وليست الحضارة العظيمة التي بناها هذا القـرد. كما تعتبر بعض أشكال المجتمع التي نجحت في إطعام تلـك

"القردة" غير معترف بها، بينما يعترف بمجتمعـات أخـرى تترك الملايين من البشر يموتون من الجوع.

من ناحية أخرى، يقبل الكثير من الناس نظرية أخـرى للمادية، والتي تؤكد على الطريقة المثلـى الممكنـة لتغييـر سلوك الإنسان.

فكما يمكن أن تتدرب الحيوانات على تغيير سلوكها في السيرك أو الغابة - كما يقول أنصار هذا الرأي - فإن سلوك الإنسان يمكن أن يتغير بنفس الطريقة.

فإذا استطاع الأشخاص المناسـبين أن يتولـوا مقاليـد الأمور في المجتمع، كما يقال، فإن "طبيعة الإنسان" يمكن أن تتغير.

تمثل وجهة النظر هذه خطوة كبيرة للأمام عن نظريـة "القرد العاري"، ولكنها تفشل في تفسير كيف يتغير المجتمـع ككل. فإذا كان كل شخص متكيفاً بشكل كامل فـي مجتمـع اليوم، فكيف يمكن إذن أن يرقى مستوى أي فرد عن المجتمع لكي يرى كيف يمكن تغيير آليات التكيف هذه؟ فهـل هنـاك مثلا أقلية مختارة من الله تمتاز بالمناعة الكاملة ضد الضغوط التي تسيطر على باقي البشر؟

فإذا كنا جميعا حيوانات في سيرك، فمن الذي سيصـبح مروض الأسود؟

إن أولئك الذين يؤمنون بهذه النظرية ينتهي بهم الحـال إلى القول بأن المجتمع لا يمكن أن يتغير (مثلهم في ذلك مثل أصحاب نظرية القرد العاري)، أو أنهم يعتقدون أن التغييـر يحدث بواسطة شيء ما خارج نطاق المجتمع - مثل الله، أو "رجل عظيم"، أو من خلال قـوة أفكـار الأشـخاص. فـ ـ "ماديتهم" تتيح لنموذج آخر من المثالية أن يدخل مـن بـاب خلفي.

وكما أشار ماركس، إن هذه العقيدة تنتهي بالضـرورة إلى تقسيم المجتمع إلى فريقين بحيث يكون أحدهما متفـوق على الآخر.

وتعتبر وجهة النظر "المادية" هذه ما هي إلا رد فعل.

إن أحد أنصار هذا الرأي من المشهورين اليوم هو عالم نفسي أمريكي يدعى سكينر. يريد سكينر أن يكيـف النـاس بحيث يتصرفون بطرق معينة. ولكن بما أنه هو نفسه نتـاج للمجتمع الرأسمالي الأمريكي، فطرق "التكييف" التي سيتبعها تعني محاولة جعل الناس يتأقلمون مع هذا المجتمع.

وهناك رأي مادي آخر يوقع بكل البؤس الموجود فـي العالم على عاتق "الضغوط السكانية".

(ويطلق عادة على هذا الرأي - مالثسي - نسـبة إلـى مالثس وهو الاقتصادي البريطاني الذي عـاش فـي القـرن الثامن عشر وأول من ابتدعوا هذه النظرية).

ولكن هذا الرأي لا يستطيع تفسير لماذا مـثلا تحـرق الولايات المتحدة فائض الذرة لديها بينما يموت الكثيرون في الهند من الجوع.

ولا يستطيع أيضا أن يفسر لماذا لم يكن هناك منذ ١٥٠ سنة غذاء من إنتاج الولايات المتحدة يكفي لإطعام ١٠ مليون من البشر، بينما في عالم اليوم لديهم من الغذاء مـا يكفـي لإطعام ٢٠٠ مليون فرد.

فتلك النظرية تتناسى أن كل فم إضافي يحتاج للغذاء هو أيضا إنسان إضافي يستطيع العمل وتحقيق الثروة.

أشار ماركس إلى أن كل تلك التفسيرات الخاطئة ما هي إلاّ أشكال للمادية "الميكانيكية" أو "البدائية". فكلها تتناسى أنه بينما يعيش البشر كجزء من العـالم المـادي، فهـم أيضـا أشخاصا فاعلة قادرة على تغيير هذا العالم.

التفسير المادي للتاريخ

"يمكن تمييز البشر عن الحيوانات بالوعي، الدين أو أي شيء آخر تحبه.

فهم أيضا يبدءون في تمييز أنفسـهم عـن الحيوانـات بمجرد أن يبدءوا في إنتاج وسـائل العـيش - أي غـذاءهم ومسكنهم وملبسهم."

بهذه الكلمات، أكد كارل ماركس من البداية على النقطة الأساسية التي تميز تفسيره لكيفية تطور المجتمع.

إن البشر حيوانات تطورت من كائنات تشبه القردة.

ومثل الحيوانات الأخرى، فإن أول ما يشغلهم هو إطعام وحماية أنفسهم من المناخ.

فالطريقة التي تقوم بها الحيوانات الأخرى لعمـل ذلـك يعتمد على بنيتهم البيولوجية المتوارثة.

فالذئب يبقى حيا من خلال مطاردة وقتل فريسته بطرق تحددها غرائزه البيولوجية المتوارثة.

وهو ينعم بالدفء في الليل البارد بسبب الفـرو الـذي يغطيه.

وهو أيضا يربي أطفاله بالطرق السلوكية المتوارثة.

أما حياة البشر فهي غير جامدة أو محددة بهذه الطريقة.

فالبشر الذين جابوا أنحـاء العـالم منـذ ١٠٠،٠٠٠ أو ٣٠،٠٠٠ سنة قد عاشوا حياة مختلفة تماما عنا اليوم.

لقد عاشوا في الأكواخ وبطون الأرض، ولم يكن لديهم أواني لحفظ الطعام أو الماء، واعتمدوا في غذائهم على جمع البذور أو إلقاء الحجارة على الحيوانات البرية.

كما أنهم لم يستطيعوا الكتابة أو عد الأرقام فيمـا عـدا أرقام أصابعهم.

ولم يكن لديهم أي معرفة حقيقية بما كان يجري بعيـدا عن جيرانهم القريبين أو ما قد فعله آباءهم من قبلهم.

ومع ذلك، فإن شكلهم الجسماني منذ ١٠٠،٠٠٠ سـنة كان مشابها لشكل إنسان العصر الحديث، وكان مطابقـا لـه تماما منذ ٣٠،٠٠٠ سنة. فإذا أتيت مـثلا برجـل الكهـف وغسلت جسده وحلقت له ذقنه وشعره وألبسته بدلة وجعلتـه يمشي في الشارع، فلن يتصور أحد أنه يبدو مختلفا.

فكما أشار عالم الحفريات جوردون تشايلد:

"إن هياكل أجدادنا الأوائل تنتمي إلى المراحل الأخيـرة للعصر الثلجي ...

ومنذ بداية ظهور الهياكـل البشـرية فـي السـجلات الجيولوجية، فإن تطور جسم الإنسان وقف عند نقطة معينـة على الرغم من أن تطوره الحضاري كان في بداياته."

حول نفس هذه الفكرة، قال عالم الحفريات ليكي:

"إن الاختلافات الجسـمانية بـين إنسـان حضـارتي الأوريجناسيان والماجدلينيان (منذ ٢٥٠٠٠ عام) من ناحيـة، وإنسان اليوم من ناحية أخرى هي اختلافات ثانويـة، بينمـا نجد الاختلاف الحضاري شديد الاتساع."

وبكلمة "حضارة" يعني عالم الحفريات الأشـياء التـي يتعلمها الرجال والنساء ويعلموها لبعضهم الـبعض (كيفيـة حياكة الملابس مثلا من الفرو أو الصـوف، كيفيـة عمـل الأواني من الطين، كيفية إشعال النار للطهي، كيفيـة بنـاء السكن، ... إلخ)

مقارنة بالأشياء التي تعرفها الحيوانات بغريزتها.

إن حياة الإنسان الأول كانت مختلفة تماما عـن حيـاة الحيوانات الأخرى. فالإنسان الأول كان يسـتطيع اسـتخدام الصفات الجسمانية الخاصة بالبشر - مـثلا المـخ الكبيـر،

والأوصال الأربعة التي يستطيع إمساك الأشياء بها - لكـي يشكل الطبيعة من حوله ويطوعها لاحتياجاته.

ولقد عني ذلك أن الإنسان يمكنه التأقلم مع كم هائل من الظروف المختلفة وبدون أي تغيير في بنيته الجسمانية.

فالإنسان لم يعد يقوم بردود أفعال تجاه ما حوله فقـط، ولكنه بدأ في اتخاذ مبادرات والقيام بأفعال تجاه ما حوله وبدأ يغيرها تبعا لإرادته.

في البداية، استخدم الإنسان العصي والحجارة لمهاجمة الوحوش الضارية، وقام بإشعال النار ليوفر لنفسـه الـدفء والضوء، وقام أيضا بتغطية نفسه بأوراق الأشجار وجلـود الحيوانات.

وعلى مدار عشرات الآلاف من السنين، تعلم الإنسـان أن يشعل النار بنفسه ويشكل الحجارة باستخدام أنواع أخرى منها، كما تعلم في النهاية زراعة غذائه وتخزينـه فـي أوانٍ مصنوعة من الطين وأيضا تعلم تربية الحيوان.

ومنذ ٥٠٠٠ سنة من التاريخ الإنساني الذي يعود إلـى نصف مليون سنة مضت، تعلم الإنسان سر تحويل المعـدن

الخام إلى معادن يمكن تشكيلها لصناعة الآلات التـي يمكـن الاعتماد عليها كأسلحة فعالة.

وكل من تلك التطورات كان لها تأثيرا هائلا، ليس فقط في جعل الحياة أسهل للإنسان لإطعام نفسه وتوفير ملبسـه، ولكن أيضا في تغيير نظام الحياة البشرية ذاتها. فمنذ البداية، كانت حياة الإنسان اجتماعية.

ولقد استطاع الإنسان قتل الوحوش فقـط مـن خـلال الجهود المشتركة لعدد من الأشخاص، وينطبق ذلـك علـى جمع الطعام وإشعال النار.

كان على البشر أن يتعاونوا.

ساعد هذا التعاون المستمر على أن يبـدأ البشـر فـي التفاعل بواسطة نطق أصوات معينة ثم بعد ذلك تكوين اللغة. في البداية، كانت المجموعات الاجتماعية بسيطة.

فلم يكن هناك إنتاج من الطبيعة يكفي لإبقاء مجموعات كبيرة من البشر على قيد الحياة وبصحة جيدة، ربمـا فقـط بعض الأعداد البسيطة.

وكان المجهود الأعظم ينفق في المهام الأساسية لإنتـاج الطعام؛ ولذلك، فلقد قام الجميع بنفس العمل وعاشـوا نفـس نوعية الحياة.

وبدون وجود أية وسائل لتخزين الطعام، لم تكن هنـاك ملكية خاصة أو انقسامات طبقية. ولم تكن هناك أيضـا أيـة غنائم توجِد دافعا للحرب.

وحتى بضعة سنوات قليلة مضت، كانت ما تزال هناك المئات من المجتمعات في أنحاء متفرقة من العـالم تعـيش بنفس ذلك النمط - مثلا بين بعض قبائل الهنود فـي شـمال وجنوب أمريكا، وبعض سكان أفريقيـا والمحـيط الهـادي، وأيضا بين الأروميين في أستراليا.

وليس تفسير ذلك أن هؤلاء البشر أقـل منـا ذكـاء أو أن"عقليتهم بدائية".

فسكان أستراليا الأصليين - الأروميين - كان عليهم أن يتعلموا كيفية التعرف على الآلاف من النباتات وعادات أنواع كثيرة من الحيوانات المتنوعة حتى يستطيعوا البقاء على قيد الحياة.

ولقد وصف عالم الأنثروبولوجيا فيرث ذلك بقوله:

"إن سكان قبائل أستراليا ...

يعرفون عادات وعلامات واختلاف الفصول عند الحيوانات التي تؤكل وطرق تربيتها بالإضافة إلى معرفتهم بالأسماك والطيور التي يصطادونها. وهم يعرفون أيضا الخصائص الخارجية وبعض تلك الداخلية للصخور والأحجار والشمع والصمغ والنباتات والأنسجة ولحاء الأشجار؛ ويعرفون كيف يشعلون النار؛ ويعرفون كيفية استخدام الحرارة لتخفيف الألم ووقف النزيف وتأخير تعفن الطعام الطازج؛ كما أنهم يستخدمون النار والحرارة لتشكيل بعض الأخشاب وجعلها صلبة وتليين بعضها الآخر...

وهم يعرفون أيضا شيئا ما عن تعاقب فترات القمر، وحركة المد والجزر، ودوران الكواكب، وتعاقب مواعيد الفصول.

لقد استطاعوا أن يتعرفوا على تغيرات المناخ ونظم الرياح، والخصائص السنوية للرطوبة والحرارة، وتدفق النمو عند الأحياء الطبيعية ...

بالإضافة إلى ذلك، فإنهم يستخدمون نتـاج الحيوانـات التي يقتلونها من أجل الطعام بشكل ذكي واقتصـادي، فهـم يأكلون جلد الكنغرو ويستخدمون عظام الأرجل في صـناعة الآلات الحجرية وكمسامير، ويستخدمون الأعصاب في ربط الرماح، والمخالب في صناعة الأساور بالشمع والأنسجة، ثم يخلطون الدهون بالغراء الأحمر لعمل المساحيق، ويخلطـون الدم بالفحم النباتي لعمل الدهانات ...

ولديهم أيضـا بعـض المعرفـة بمبـادئ الميكانيكـا، ويصنعون البمرنغ أو قطع الخشب الملوية المعقوفـة التـي يبرمونها مرة بعد الأخرى لتأخذ التقويس المضبوط."

لقد كانوا "أمهر" منا كثيرا في التعامل مع مشاكل البقاء في الصحراء الأسترالية.

وما لم يتعلموه هو كيفية زرع البذور لينتجوا طعـامهم بأنفسهم - وهو شيء تعلمه أجدادنا منذ حوالي ٥٠٠٠ سـنة فقط بعد أن مكثوا على وجه الأرض أضعاف تلك السـنوات بمئات المرات.

إن تطور تقنيات جديدة لإنتـاج الثـروة - أي وسـائل معيشة الإنسان - قد خلقت أشكال جديدة من التعـاون بـين البشر، أو علاقات اجتماعية جديدة.

فعلى سبيل المثال، عندما تعلم البشر في البداية زراعـة طعامهم (بواسطة زراعة البذور وتربية الحيوان) وتخزينـه (في أوانٍ من الطين)، اعتُبر ذلك ثورة كاملـة فـي الحيـاة الاجتماعية - أطلق عليها بواسطة علماء الحفريـات "ثـورة العصر الحجري." كان على البشر أن يتعاونوا مع بعضـهم البعض لكي يحرثوا الأرض ويحصـدوا الطعـام، وأيضـا ليصطادوا الحيوانات. وهكذا، أصبح بإمكانهم أن يعيشوا مع بعض بأعداد كبيرة عن ذي قبل وأن يخزنوا طعـامهم وأن يبدءوا في مبادلة بضائعهم مع مجموعات أخرى من البشر.

وهكذا، كان في الاستطاعة أن تنمـو المـدن الأولـى. فللمرة الأولى، توفرت إمكانية أن يعيش بعض الناس حيـاة خالية من عبء إنتاج الطعام فقط:

فالبعض أصبح يمكنه التخصص في صناعة الأوانـي، والبعض الآخر في صناعة صوان المعادن وبعد ذلك المعادن

التي أنتجت الآلات والأسلحة، كما تخصص البعض الآخـر في مهام إدارية أولية لإدارة شئون المستوطنة ككل.

والأهم من ذلك كله أن فائض الطعام خلق دافعا للحرب.

بدأ البشر اكتشاف طرق جديدة للتعامل مع العالم المحيط بهم، أو تطويع الطبيعة لخدمة احتياجاتهم. ولكن في خـلال هذه العملية، وبدون قصد، فقد طوروا المجتمع الذي عاشـوا فيه، وبالتالي حياتهم هم أيضا. لخّص ماركس تلـك العمليـة بقوله أن تطوير "عوامل الإنتاج" قد غيرت "علاقات الإنتاج"، ومن خلال ذلك المجتمع ككل.

وهناك الكثير من الأمثلة الحديثة.

منذ ٣٠٠ سنة مضت، عاش غالبية السكان في هذا البلد على نتاج الأرض، حيث كانوا ينتجون الطعام بواسطة آلات لم تتطور كثيرا على مدار قرون عدة.

وبالتالي، كانت آفاق تفكيرهم محـددة بحـدود قـريتهم ومفاهيمهم متأثرة إلى حد كبير بالكنيسة.

فالغالبية العظمى لم تكن في حاجة للقراءة أو الكتابة ولم يتعلموهما أبدا.

ثم منذ ٢٠٠ سنة، بدأت الصناعة في التطور.

فلقد جيء بعشرات الآلاف مـن البشـر للعمـل فـي المصانع. وهكذا، حدث تحول هائل في حياتهم.

فالآن، عاش هؤلاء الأفراد في المدن الكبيرة وليس في القرى الصغيرة.

واحتاجوا إلى أن يتعلموا عدد من المهارات لـم يكـن ليحلم بها أجدادهم من قبلهم، بما فـي ذلـك تعلـم القـراءة والكتابة.

كما ساعد بناء السكك الحديدية والبواخر على إمكانيـة السفر حول نصف الكرة الأرضية.

ولم تعد الأفكار القديمة التي تعلموهـا مـن القساوسـة تناسبهم على الإطلاق في ظل ذلك التطور .

فالثورة المادية في الإنتاج شكلت أيضا ثورة في أسلوب حياتهم والأفكار التي آمنوا بها.

والآن، ما زال هناك مثل تلك التغيرات التي تؤثر على حياة الكثير من البشر. أنظر مثلا إلى الطريقة التي يحضـر بها أفراد من قرى بنجلاديش أو تركيا إلـى المصـانع فـي إنجلترا أو ألمانيا من أجل العمل.

أنظر إلى كيف أن الكثير مـنهم يجـدون أن عـاداتهم القديمة واتجاهاتهم الدينية لم تعد تناسبهم.

أو أنظر إلى الـ ٥٠ سنة الماضـية والطريقـة التـي تعودت عليها النساء في العمل خارج المنزل وكيف أن هـذا التغير قد ساعدهن على مناهضة الأفكار القديمة التي جعلتهن ملكاً لأزواجهن.

فالتغيرات التي تطرأ على عمل البشـر مـع بعضـهم البعض لإنتاج الطعام والملبس والمسكن الذي يحتويهم تؤدي إلى تغيرات في الطريقة التي ينتظم بها المجتمع واتجاهـات الناس فيه.

إن هذا هو سر التغير الاجتماعي - تغيـر التـاريخ - والذي لم يفهمه الكثير من المفكرين قبل ماركس (والكثيرين أيضا منذ ظهور نظريتـه) مثـل الطوبـاويين والمـاديين الميكانيكيين.

لقد رأى الطوباويون أن هناك تغيير - ولكنهم قالوا أنه يأتي من السماء. أما الماديين الميكانيكيين فقد رأوا أن البشر يتكيفون بالعالم المادي ولكنهم لم يستطيعوا أبدا فهـم كيفيـة حدوث التغيير.

ما رآه ماركس، من ناحية أخرى، هو أن البشر يتكيفون بالعالم من حولهم، ولكنهم يتفاعلون مع هذا العالم ويعملـون لجعله أكثر صلاحية للسكنى. وهم في ذلك يغيرون الظروف التي يعيشون فيها، وبالتالي فهم يغيرون من أنفسهم أيضا.

إن مفتاح فهم التغيير في المجتمع يكمن في فهم كيفيـة تعامل البشر مع مشكلة إنتاج طعامهم ومسكنهم وملبسهم. لقد كانت تلك هي النقطة التي انطلق منها ماركس.

ولكن هذا لا يعني أن الماركسيين يؤمنون بأن التطـور في التكنولوجيا ينـتج أوتوماتيكيـا مجتمعـا أفضـل أو أن الاكتشافات العلمية تؤدي أوتوماتيكيـا إلـى تغيـرات فـي المجتمع.

لقد رفض ماركس هذه الرؤية (والتي يطلق عليها أحيانا الحتمية التكنولوجية).

ومرة بعد أخرى في التاريخ، قامت الجماهير بـرفض الأفكار التي تطور من إنتاج الطعام والمسكن والملـبس لأن هذا التطور يصطدم مع اتجاهات أو أنماط المجتمع السائدة.

ففي ظل الإمبراطورية الرومانية، على سبيل المثـال، كانت هناك أفكار عديدة عن كيفية إنتاج محاصيل أكثر مـن

مساحة أرض معينة ولكن الناس لم تفعل ذلـك لأنـه كـان سيتطلب إخلاص في العمل أكثر مما يمكن الحصول عليـه من العبيد وهم يعملون تحت ضغط الخوف من الكرباج.

وعندما حكم البريطانيون أيرلندا في القرن الثامن عشر، فقد حاولوا أن يوقفوا نمو الصناعة هناك لأنها اصطدمت مع مصالح رجال الأعمال في لندن.

فإذا جاء أحد وقدم طريقة معينة لكي يحل مشكلة نقص الطعام في الهند بذبح البقر المقدس، أو أن أحدا حاول توفير اللحم لكل فرد في بريطانيا من خلال تصنيع لحوم الفئـران، فسوف يتم تجاهل هذا الشخص تماما بسبب تمسـك النـاس بالمفاهيم السائدة.

إن التطور في الإنتاج يتحدى المفاهيم القديمة والطـرق القديمة لتنظيم المجتمع، ولكن هذا التطور لا يطـيح بشـكل أوتوماتيكي بتلك المفاهيم القديمة وأشكال المجتمع السائدة.

فالكثير من الناس تحارب أحيانا من أجل منع حـدوث تغيير ما - وأولئك الذين يرغبون في استخدام طرق جديـدة للإنتاج عليهم أن يحاربوا من أجل إحداث التغيير.

وإذا كسب المعركة أولئك الذين يعارضون التغيير، فلن يتم توظيف الأشكال الجديدة للإنتاج وسوف يصاب المجتمع بحالة ركود أو يتقهقر للوراء.

إن التعريف الماركسي يقول:

عندما يحدث تطور في قوى الإنتاج، فإنهـا تصـطدم بالعلاقات الاجتماعية السائدة والأفكار التي نمت على أساس القوى الإنتاجية القديمة.

وحينئذ فإما أولئك الذين يؤيدون قوى الإنتـاج الجديـدة سوف يكسبون تلك المعركة، أو سيكسـبها الفريـق الآخـر المؤيد للنظام القديم.

وفي الحالة الأولى، يتقدم المجتمع للأمام، وفي الحالـة الأخرى يركد المجتمع أو يتخلف إلى الوراء.

الفصل الثالث
الصراع الطبقي

نحن نعيش في مجتمع منقسم إلى طبقات، يحظى فيه قليل من الناس بثروات خاصة هائلة في حين لا يملك معظمنا شيئا يذكر. ونحن نميل بالطبع لافتراض أن الأمور كانت دائما على هذا النحو. لكن في الواقع، وفي الجزء الأعظم من تاريخ الإنسان، لم تكن هناك طبقات ولا ملكية خاصة ولا جيوش أو شرطة.

كان ذلك هو الوضع خلال نصف مليون سنة من تطور الإنسان حتى ٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سنة مضت. لم يكن ممكنا أن ينقسم المجتمع إلى طبقات قبل أن يكون بوسع الفرد الواحد أن ينتج من الطعام ما يفوق حاجته التي تجعله قادرا على العمل.

فما جدوى الاحتفاظ بعبيد إذا كانوا يحتاجون لاستهلاك ما ينتجونه للبقاء على قيد الحياة؟

إلا أنه بعد حد معين، فإن تقدم الإنتاج جعل الانقسامات الطبقية غير ممكنة فحسب بل ضرورية أيضا.

فقد صار بالإمكان إنتاج طعام يكفي لترك فائض بعـد حصول المنتجين المباشرين على ما يكفيهم للبقاء على قيـد الحياة.

كما توفرت وسائل تخزين هذا الطعام ونقله من مكـان لآخر.

كان من الممكن ببساطة أن يأكل أولئـك الـذين أنـتج عملهم كل هذا الطعام فائض الطعام الإضافي.

وحيث أنهم كانوا يعيشون حياة هزيلة بائسة إلـى حـد كبير، فإن الإغراء كان كبيرا.

إلا أن ذلك كان من شأنه إبقائهم بلا حماية إزاء تقلبـات الطبيعة التي قد تأتي بمجاعة أو فيضان في العام التـالي، أو القدرة على مواجهة الهجمات من القبائل الجائعة من خـارج المنطقة.

في البداية، كانت هناك مصلحة كبيرة للجميـع فـي أن تتولى جماعة خاصة من الناس مسئولية هذه الثروة الإضافية بحيث يخزنونها تحسبا للكوارث المسـتقبلية، ويسـتخدمونها لدعم الحرفيين وبناء وسائل الدفاع، ومبادلة جزء منها مـع أناس بعيدين مقابل أشياء مفيدة. بدأ القيام بتلك الأنشطة فـي

المدن الأولى حيث عاش الإداريون والتجـار والحرفيـون. وبدأت الكتابة تتطور من خلال العلامـات علـى الألـواح المستخدمة لحفظ السجلات الخاصة بمختلف أنواع الثروة.

تلك كانت الخطوات المتعسـرة الأولـى لمـا نسـميه "الحضارة".

إلا أن ذلك كله كان قائما على السيطرة علـى الثـروة المتزايدة بواسطة أقلية من السكان.

واستخدمت الأقلية الثروة لمصـلحتها وكـذلك لصـالح المجتمع ككل.

كلما زاد الإنتاج تطورا كلما زادت الثروة التي تتركـز في أيادي تلك الأقلية، وكلما زاد ما يتم استقطاعه من بـاقي المجتمع.

فالقواعد التي ظهرت كوسائل لإفادة المجتمع أصـبحت "قوانين" وأصرت على أن الثروة والأرض التي أنتجتها كانت "الملكية الخاصة" للأقلية. لقد ظهرت الطبقات الحاكمة للوجود وكانت القوانين تدافع عن سلطاتها.

من الممكن أن نتساءل عما إذا كان ممكنا للمجتمـع أن يتطور بشكل آخر بالنسبة لأولئك الذين كانوا يعملـون فـي الأرض لكي يستطيعوا السيطرة على إنتاجهم؟

الإجابة هي لا، ليس بسبب "طبيعة الإنسان" لكن بسـبب أن المجتمع كان لا يزال فقيرا للغاية.

كانت الغالبية من سكان الأرض مشغولة تماما في نبش التربة من أجل حياة هزيلة، فلم يكن هنـاك وقـت لتطـوير أنظمة القراءة والكتابة أو خلق أعمال فنية، أو بنـاء السـفن للتجارة أو وضع خريطة لسير النجـوم لاكتشـاف مبـادئ الرياضيات والاستعداد لوقت فيضان الأنهار، أو كيفية شـقّ قنوات الري. هذه الأشياء كان يمكن لها أن تحدث فقط فـي حالة مصادرة بعضا من ضرورات الحياة من غالبية جمهور السكان واستخدامها للحفاظ على حياة أقلية متميزة والتي ليس عليها أن تشقى من شروق الشمس لغروبها.

على أية حال، إن هذا لا يعني أن الانقسام لطبقات مـا زال ضروريا اليوم.

فلقد شهد القرن الماضي تطورا للإنتاج يفوق الخيال في تاريخ الإنسانية السابق كله.

لقد تم التغلب على الندرة الطبيعية - وما هو موجـود الآن يعتبر ندرة مصطنعة تنتج بسبب أن الحكومـات تـدمر مخزون الغذاء.

إن المجتمع الطبقي اليوم يعود بالإنسـانية للخلـف ولا يقودها للأمام.

لم يكن هذا مجرد تغيرا أولياً من المجتمعات الزراعيـة النقية إلى مجتمعات المدن الصغيرة والكبيرة والتي أنتجـت بالضرورة الانقسامات الطبقية الجديدة.

فنفس العملية كانت تُعاد كل مرة بظهور طرق جديـدة لإنتاج الثروة.

وهكذا، ففي بريطانيا ومنذ آلاف السنين، تألفت الطبقـة الحاكمة من البارونات الإقطاعيين الذين كـانوا يسـيطرون على الأرض ويعيشون على كواهل العبيد.

لكن بمجرد أن بدأت التجارة تتطور بشكل كبير هنـاك، بدأ في نفس الوقت نمو طبقة متميزة جديـدة مـن التجـار الأغنياء في المدن.

وعندما بدأت الصناعة تتطور على مستوى كبير، بـدأ أصحاب المشروعات الصناعية ينافسوهم في قوتهم.

وفي كل مرحلة من تطور المجتمع، كانت هناك طبقـة مضطَهدة، ومن خلال قوة عملهم خُلقت الثروة ومعها طبقـة حاكمة سيطرت على هذه الثروة.

لكن لأن المجتمع يتطور، فإن كل مـن المضـطَهدين والمضطِهدين خضعوا للتغيير.

في المجتمع العبودي لروما القديمة، كان العبيد ملكيـة شخصية للطبقة الحاكمة.

كان مالك العبيد يملك السلع التي ينتجها العبد لأنه يملك العبد نفسه، بنفس الطريقة بالضبط التي كان يملك بها اللـبن الذي تنتجه البقرة لأنه يملك البقرة.

في المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطى، كان لدى الأقنان أراضيهم الخاصة بهم وكانوا يملكون ما ينتج منها.

لكن في مقابل حيازة تلك الأرض، كان عليهم أن يقوموا بعدد من الأعمال في أيام محددة خلال السـنة فـي الأرض المملوكة من قِبل السيد الإقطاعي.

وبذلك، فإن وقتهم كان يتم تقسيمه - ربما نصف وقتهم كانوا يخصصونه للسيد ونصف الوقت الآخر لأنفسـهم؛ وإذا

رفضوا القيام بالعمل للسيد الإقطاعي فقد كان يستطيع معاقبتهم إما بالجلد أو السجن أو ما هو أسوأ من ذلك.

في المجتمع الرأسمالي الحديث، لا يملك المدير العامل جسديا ولا هو مخول بمعاقبته جسديا إذا ما رفض العامل أن يقوم بعمل غير مدفوع الأجر من أجله.

لكن المدير يملك المصانع حيث يضطر العامل أن يجد وظيفة لو أراد أن يبقى على قيد الحياة.

ولذلك، فمن السهل تماما بالنسبة للمدير أن يجبر العامل على أن يتحمل الأجر الذي يدفع له وهو أقل بكثير من قيمة السلع التي يصنعها العامل في المصنع.

وفي كل حالة من تلك، تسيطر الطبقة المستغِلة على الثروة المتبقية بمجرد سد الاحتياجات الأساسية جدا للعمال.

كان مالك العبد يهدف إلى أن يبقي ملكيته في حالة جيدة، ولذلك فهو يغذي عبده تماما بنفس الطريقة التي تزود سيارتك بالبنزين.

لكن كل شيء يفيض عن الحاجات المادية للعبد يستخدمها المالك لمتعته الخاصة.

أما بالنسبة لعبد الإقطاعي، فكان يطعم نفسـه ويـوفر ملبسه من خلال العمل الذي يبذله في جـزء الأرض الـذي يملكه.

ولكن فيما يتعلق بالعمل الإضافي الذي يبذله في أرض السيد فإن ثماره تذهب إلى السيد.

أما العامل في العصر الحديث فيحصل على أجر. وكل الثروة الأخرى التي ينتجها تذهب للطبقة الحاكمة كـربح أو فائدة أو إيجار.

الصراع الطبقي والدولة

نادرا ما يتقبل العمال نصيبهم من العمل بدون مقاومـة أو صراع.

فلقد كان هناك ثورات للعبيد في مصر القديمة ورومـا وثورات فلاحية في الصين الإمبريالية، وحروب أهلية بـين الأغنياء والفقراء في المدن اليونانية القديمة وروما وأوروبـا في عصر النهضة. كان هذا هو سبب أن بدأ كارل مـاركس منشوره البيان الشيوعي مؤكدا على:

"إن تاريخ كل مجتمع موجود إلى يومنا هذا هو تـاريخ الصراع الطبقي." اعتمد نمو الحضارة على استغلال إحـدى الطبقات لأخرى، وبالتالي على الصراع فيما بينهما.

فمهما وصلت قوة الفرعون المصري أو الإمبراطـور الروماني أو أمير العصور الوسطى، ومهما بلغت الرفاهيـة التي كانوا يعيشون فيها، ومهما كانت روعة قصورهم، فإنهم كانوا لا يستطيعون فعل أي شيء إلا إذا ضمنوا أن المنتجات المتوفرة بواسطة الفلاحين البؤساء والعبيد تنتقل إلى ملكيتهم. وهم يستطيعون فعل ذلك فقط إذا كان هنـاك بجانـب هـذا الانقسام الطبقي نموا لشيء آخر - وهو السيطرة على وسائل العنف بأنفسهم وبواسطة مؤيديهم.

في المجتمعات المبكرة، لم يكن هناك جيش أو شـرطة أو أجهزة حكومية منفصلة عن غالبية الناس. وحتى منذ ٥٠ أو ٦٠ سنة مضت - على سبيل المثال - كان لا يزال هناك في مناطق في أفريقيا إمكانية لوجود مجتمعـات مـن هـذا النوع. فالعديد من المهام التي تقوم بها الدولة فـي مجتمعنـا كانت تتم ببساطة وبشكل غير رسمي بواسطة جميع السـكان أو من خلال اجتماعات لممثلين من بينهم.

كانت تلك الاجتماعات تقيم سلوك أي فرد إذا ما كسـر قاعدة اجتماعية هامة، وكانت العقوبة تطبق بواسطة المجتمع ككل.

فعلى سبيل المثال، ربما يكون الحكم أن يجبر المخطئين على الرحيل.

وبما أن كل الأفراد قد وافقوا على العقوبة اللازمة، لـم يكن هناك احتياج لوجود قـوات شـرطة منفصـلة لتنفيـذ العقوبات.

وإذا اندلعت الحرب، فكل الرجال من الشباب يشاركون فيها تحت قيادة يتم اختيارها مخصوص للقيام بهذه المهمـة، ومرة أخرى بدون أي هيكل منفصل للجيش.

لكن بمجرد أن يكون لديك مجتمع تسيطر فيه أقلية على معظم الثروة، تصبح هذه الطرق البسـيطة للحفـاظ علـى "القانون والنظام" وتنظيم الحرب غير فعالة.

ويصبح أي اجتماع للممثلين أو أي تجمع للشباب المسلح من المرجح أن ينقسم بناء على الفروق الطبقية.

تستطيع المجموعة ذات الامتيازات أن تحيا فقط من خلال احتكارها لِسن وتنفيذ العقوبات والقوانين وتنظيم الجيوش وإنتاج الأسلحة.

وهكذا، نجد أن الفصل بين الطبقات كان مرتبطا بظهور جماعات القضاة ورجال الشرطة والبوليس السري والجنرالات والبيروقراطيين، بحيث يحصل كل منهم على جزء من الثروة التي في يد الطبقة صاحبة الامتيازات في مقابل حماية حكمها أو سلطتها.

إن أولئك الذين خدموا في صفوف هذه "الدولة" كانوا مدربين على طاعة أوامر قادتهم بدون تردد، كما كانوا مفصولين عن أية روابط اجتماعية عادية مع الجماهير المستغَلة.

وهكذا، تطورت الدولة كآلة للقتل في يد الطبقة المتميزة واستطاعت أن تكون آلة فعالة للغاية.

بالطبع، أراد الجنرالات الذين يديرون هذه الآلة أن يوقعوا بالإمبراطور أو الملك المعين لكي ينصبوا أنفسهم في مكانه.

أما الطبقة الحاكمة التي سلحت هذا الوحش فلم يكن في مقدورها في الكثير من الأحيان أن تسيطر عليه. ولكـن لأن الثروة المطلوبة لإبقاء آلة القتل دائرة تـأتي مـن اسـتغلال مجاميع العمال، فإن أي تمرد كان يتبعه استمرار للمجتمـع الذي كان موجودا في السابق.

وعلى مدار التاريخ، نجد أن البشر الذين أرادوا بالفعـل تغيير المجتمع للأفضل قد وجدوا أنفسهم في مواجهـةمع - ليس فقط الطبقة صاحبة الامتيازات - ولكن أيضا تلك الآلـة المسلحة: الدولة التي تخدم مصالحها.

لقد نشأت في الأساس الطبقات الحاكمة ومعها القساوسة والجنرالات ورجال الشرطة والنظم القانونية التـي دعمتهـا لأنه بدونهم لم تكن للحضارة أن تتطور. لكـن بمجـرد أن يثبتوا أقدامهم في السلطة، يصبح لديهم مصلحة فـي إعاقـة تطور الحضارة.

فسلطتهم تعتمد على قدرتهم على إخضاع أولئك الـذين ينتجون الثروة بحيث يقدمونها لهم في النهاية.

كما أنهم يفقدون الاهتمام بالطرق الحديثة لإنتاج الثروة - حتى لو كانت اكثر كفاءة عن القديمة - خشية أن يفقـدوا السيطرة عليها.

إنهم يخافون أي شيء يمكن أن يقود الجماهير المستغَلة إلى نمو مبادراتهم أو استقلاليتهم.

كما أنهم يخافون مـن نشـأة مجموعـات جديـدة ذات امتيازات وثروة كافية تجعلهم قادرين على شـراء الأسـلحة وتسليح الجيوش الخاصة بهم.

وعند نقطة معينة، فإنهم يبدءون فـي تعويـق تطـور الإنتاج بدلا من مساعدته على التقدم للأمام.

على سبيل المثال، في فترة حكم الإمبراطورية الصينية، استند نفوذ الطبقة الحاكمة على ملكيتها للأرض وسـيطرتها على القنوات والسدود التي كانت ضرورية للري من أجـل تجنب الفيضانات.

ولقد مهد هذا النفوذ الأساس لحضارة امتدت إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة.

ولكن في نهاية تلك الفترة، لم يكن الإنتاج متقدم كثيرا عن البداية، على الرغم من ازدهار الفن الصيني واكتشاف الطباعة والبارود.

كل هذا في وقت كانت فيه أوروبا واقعة تحت نير العصور المظلمة.

وكان السبب في ذلك أنه عندما بدأت تظهر أشكال جديدة للإنتاج، حدث ذلك في المدن من خلال مبادرات التجار والحرفيين.

ولقد خشيت الطبقة الحاكمة هذا النمو في سلطة جماعة اجتماعية معينة والتي لم تكن تخضع لسيطرتها بشكل كامل. ولذلك، وبطريقة دورية، اتخذت السلطات الإمبريالية إجراءات صارمة لسحق الاقتصاد المتنامي في المدن ودفع الإنتاج لأسفل وتحطيم سلطة الطبقات الاجتماعية الجديدة.

إن نمو قوى جديدة للإنتاج - أي طرق جديدة لإنتاج الثروة - قد اصطدم مع مصالح الطبقة الحاكمة القديمة.

لقد تصاعد الصراع وكانت النتيجة هي التي حددت مستقبل المجتمع كله.

وفي بعض الأحيان، كانت النتيجة - كما في الصين - هي عدم السماح لأنماط جديدة من الإنتاج في الظهور، وظل المجتمع في حالة ركود لفترات طويلة من الزمن.

وفي بعض الأحيان الأخرى، كما في الإمبراطورية الرومانية، كان معنى عجز الأنماط الجديدة للإنتاج من التطور أنه في آخر الأمر لم تعد هناك ثروة كافية تُنتَج لإبقاء المجتمع قائما على قواعده القديمة.

ثم انهارت الحضارة وتحطمت المدن، فارتدت الشعوب إلى نمط المجتمع البدائي الزراعي.

وفي أحيان أخرى، قامت طبقة جديدة على أساس نمط جديد للإنتاج واستطاعت تنظيم صفوفها، وبالتالي إضعاف ثم التخلص نهائيا وهزيمة الطبقات الحاكمة القديمة مع نظامها القانوني وجيوشها وأيديولوجيتها ومؤسساتها الدينة. بعد ذلك، استطاع المجتمع أن يتطور ويتقدم للأمام.

وفي كل حالة من تلك، وعندما كان أي من تلك المجتمعات في تقدم للأمام أو للخاف، اعتمد ذلك على الفريق الذي كسب الحرب بين الطبقات.

وكما هو الحال في أي حرب، لم يكن أبدا النصر محددا منذ البداية، ولكنه اعتمد على التنظـيم والتماسـك وقيـادة الطبقات المتصارعة.

الفصل الرابع
الرأسمالية: كيف بدأ النظام

إن واحدة من أكثر النقاشات هزلاً هي التـي تسـمعها تقول أن الأوضاع لم يكن لها أن تختلف عما هي عليه الآن. ولكن الأوضاع بالفعل كانت مختلفة، ليس في مكان بعيد على الكرة الأرضية، ولكن هنا في هذه الدولة وليس منـذ زمنـا طويلا.

فمنذ حوالي ٢٥٠ عاما، ربما اتّهمك الناس بالجنون إذا ما وصفت لهم العالم الذي نعيش فيه اليوم بمدنـه الضـخمة ومصانعه الكبيرة وطائراته ورحلات فضائه، وحتـى بـنظم السكك الحديدية. كان كل ذلك سيفوق خيالهم. لقد عاش الناس قديما في مجتمع تهيمن عليه الزراعة، ولم يخطوا غـالبيتهم عشرة أميال خارج قراهم حيث تَحدد نمط الحياة - كما كان سائدا لآلاف السنوات - على تعاقب الفصول.

ولكن منذ ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة، حدث تطور في المجتمع كان من نتائجه مناهضة النظام القائم بأكمله. بدأت مجموعات من الحرفيين وأصحاب الأعمال التجارية بناء مستقبلهم فـي

المدن؛ فهم لم يعودوا يقدمون خدماتهم مقابل لا شيء للسيد الإقطاعي كما فعل باقي السكان، ولكنهم كانوا يبادلون منتجاتهم مع السادة والأقنان على اختلافهم مقابل الطعام.

وبشكل متزايد، أصبحوا يستخدمون المعادن الثمينة كمعيار لهذا التبادل.

وبالتالي، فالنظر إلى كل نوع من المبادلة كفرصة للحصول على عدد أكثر قليلا من المعادن الثمينة وتحقيق الربح لم يعد يمثل خطوة كبيرة للأمام.

في البداية، استطاعت المدن أن تبقى على قيد الحياة من خلال تأليب السادة الإقطاعيين ضد بعضهم البعض.

ولكن بتحسن مهارات من لديهم من حرفيين، استطاعوا تكوين ثروة أكبر، وبالتالي زاد نفوذهم كثيرا.

فـ "البرجوازية" أو "الطبقات الوسطى" قد بدأت تظهر كطبقة من ضمن نسيج المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطى.

ولكنهم استطاعوا أن يحققوا ثراءهم بطريقة مختلفة تماما عن السادة الإقطاعيين والذين كانوا يسيطرون على المجتمع.

فلقد عاش السيد الإقطاعي مباشرة على الإنتاج الزراعي الذي أخرجه عبيده من أرضه بالقوة.

فالسيد قد استخدم قوته الشخصية ليجعلهم يقومون بهـذا العمل بدون أن يكون مضطرا لدفع أي أجر لهم.

وعلى عكس ذلك الوضع، عاشت الطبقات الغنيـة فـي المدن على بيع السلع غير الزراعية.

كما أنهم كانوا يدفعون للعمال أجورا من أجل إنتاج تلك السلع، إما باليوم أو الأسبوع.

وهؤلاء العمال، وهم في غالبيتهم من العبيد الهـاربين، كانوا "أحراراً" في الذهاب والعودة كما شاءوا طالمـا أنهـم انتهوا من العمل الذي يأخذون عليه أجراً.

أما الشيء الإلزامي "الوحيد" بالنسبة لعملهم فهـو أنهـم كانوا سيموتون من الجوع إذا لم يجدوا عملا عند أحد.

أما الأثرياء فكانوا يزدادون ثراء لأن ذلك العامل "الحر" اضطر - بدلا من الموت جوعا - إلى أن يقبل بأجر علـى عمله أقل من قيمة السلع التي كان ينتجها.

وسوف نرجع إلى هذه النقطة فيما بعد.

أما ما يهمنا الآن فهو أن طبقة البرجوازيين الوسطى والسادة الإقطاعيين قد حصلوا على ثرواتهم من مصادر مختلفة تمام الاختلاف.

وهذا جعل لديهم الرغبة في أن يروا المجتمع منظماً بطرق مختلفة.

إن المجتمع المثالي بالنسبة للسيد الإقطاعي كان مجتمعا يتحقق له فيه النفوذ المطلق على أراضيه الخاصة وبدون التقيد بالقوانين المنصوص عليها أو تدخّل أي شخص من الخارج، وأيضا ضمان عدم هروب عبيده. أراد ذلك السيد أن تبقى الأوضاع كما كانت عليه في أيام والده وجده، بحيث يقبل كل فرد الوضع الاجتماعي الذي ولد به.

أما طبقة البرجوازيين الغنية الحديثة، فقد رأت الأمور بشكل مختلف. لقد أرادوا فرض قيود على نفوذ الإقطاعيين أو الملوك لكي يتدخلوا في أمور تجارتهم أو ليسرقوا ثروتهم. كان عندهم حلماً بتحقيق ذلك من خلال منظومة مستقرة من القوانين المكتوبة، يتم تجهيزها وفرضها بواسطة ممثلين لهم. فلقد أرادوا أن يحرروا الطبقات الفقيرة من

العبودية حتى يستطيعوا العمل في المدن (ويزيدون من ثروة البرجوازيين).

فبالنسبة لهم هم شخصيا، نال آباءهم وأجدادهم الكثير من المعاناة تحت حكم السادة الإقطاعيين، فهم بالتأكيد لم يرغبوا في استمرار ذلك الوضع.

باختصار إذن، أراد البرجوازيون إحداث ثورة في المجتمع.

ولم تكن صراعاتهم مع النظام القديم بسبب عوامل اقتصادية فقط، ولكن أيضا لدوافع أيديولوجية وسياسية.

وتعلق الخلاف الأيديولوجي أساسا بالعامل الديني - في مجتمع نسبة الأمية غالبة به - حيث كان المصدر الرئيسي للأفكار العامة عن المجتمع هو خطبة الكنيسة.

وحيث أن الكنيسة في العصور الوسطى كان يديرها الأساقفة والرهبان، والذين كانوا ينتمون هم أنفسهم لطبقة السادة الإقطاعيين، فقد حرضت الكنيسة على الأفكار المؤيدة لتلك الطبقة وهاجمت الكثير من ممارسات برجوازيي المدن باعتبارها "خطايا".

ولذلك نجد أنه في ألمانيا، هولندا، إنجلترا وفرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قامت الطبقات الوسطى بالدعاية لدين خاص بهم:

البروتستانتية، وهي أيديولوجية دينية تدعو إلى حسن التدبير والاتزان والعمل الشاق (خاصة بالنسبة للعمال!)، وأيضا استقلالية الطبقات الوسطى عن نفوذ الأساقفة والرهبان.

لقد أبدعت الطبقة الوسطى إلهاً في خيالها، في مقابل إله العصور الوسطى.

واليوم، يحكى لنا في المدرسة أو على شاشة التليفزيون عن الحروب الدينية العظمى أو الحروب المدنية لتلك الفترة كأنها كانت فقط نتاج للاختلاف الديني، وكأن الناس كانت تحارب وتموت لمجرد اختلافهم حول دور جسد أو دم المسيح في العشاء الرباني.

ولكن كانت هناك الكثير من الأمور الخطيرة، خاصة الصراع بين نمطين للمجتمع مختلفين تمام الاختلاف ومبنيين على طريقين مختلفين لتنظيم إنتاج الثروة.

في بريطانيا، كسب البرجوازيون المعركة.

وعلى الرغم من كون ما حدث في تلك الأثنـاء يبـدو مرعبا للطبقة الحاكمة اليوم، فإن أجدادهم وصـلوا للسـلطة بقطع رأس الملك وتبرير ذلك بما نص عليه لغو الأنبياء في التوراة.

ولكن في مناطق أخرى، كسب الإقطاعيون المعارك في الجولة الأولى. ففي فرنسا وألمانيـا، تـم سـحق الثـوريين البرجوازيين البروتستانت بعد سلسلة من الحـروب المدنيـة الفظيعة (على الرغم من أن الديانة التي بقيـت فـي شـمال ألمانيا كانت نموذج إقطاعي للبروتستانتية).

واضطر البرجوازيون أن ينتظروا قرنين أو أكثر قبـل أن يحرزوا النصر، وذلك في الجولة الثانية التي لـم تلـبس عباءة الدين في باريس ١٧٨٩.

الاستغلال وفائض القيمة

في مجتمعات العبودية والإقطاع، كان علـى الطبقـات العليا أن تخلق القوانين التي تسيطر بهـا علـى الجمـاهير العاملة.فإذا لم تفعل ذلك، كان يمكن لأولئك الـذين يعملـون

لدى السيد الإقطاعي أو مالك العبيد الهرب، تاركين الطبقة المتميزة بدون أفراد يعملون في خدمتها.

ولكن الرأسمالي عادة لا يحتاج إلى مثل تلك السيطرة القانونية على الفرد العامل.

إنه لا يحتاج لأن يمتلكه ولكنه يجب أن يتأكد من أن العامل الذي يرفض العمل لدى الرأسمالي سوف يموت من الجوع. فبدلاً من امتلاك العامل يمكن للرأسمالي أن يزدهر ويتقدم لأنه يملك ويسيطر على مصدر عيش العامل:

أي الآلات والمصانع.

فالاحتياجات المادية للحياة كانت تُنتَج بواسطة عمل البشر.

ولكن يصبح هذا العمل غير مفيد على الإطلاق بدون آلات تحرث الأرض وتصنّع المواد الخام. ويمكن أن تتنوع هذه الآلات تنوعا كبيرا، بداية من الآلات الزراعية البدائية مثل المحراث والفأس، وانتهاء بالآلات المعقدة والتي تجدها في المصانع الحديثة. وهكذا، فبدون الآلات لا يستطيع حتى أكثر العمال مهارة أن ينتجوا الأشياء التي يحتاجها البشر للبقاء على قيد الحياة.

لقد كان تطور تلك الآلات - والتي عادة ما يطلق عليها "وسائل الإنتاج" - هو العامل الذي يفصل بين إنسان العصر الحديث وأسلافنا القدامى في العصر الحجري.

فالرأسمالية تعتمد على امتلاك وسـائل الإنتـاج هـذه بواسطة قلة من الأفراد. وفي بريطانيا اليوم، علـى سـبيل المثال، يمتلك ١% من السكان حوالي ٨٤% مـن الأسـهم والسندات في الصناعة.

كما تتركز في أياديهم آليات التحكم الفعال في الغالبيـة العظمى من وسائل الإنتاج - مثل الآلات، المصانع، حقـول البترول، وأفضل الأراضي الزراعية.

ويستطيع غالبية الجماهير أن يحصـلوا علـى وسـائل عيشهم فقط إذا سمح لهم الرأسماليون بالعمل فـي وبوسـائل الإنتاج تلك. إن هذا يعطي الرأسماليين قوة هائلة لاسـتغلال عمل البشر الآخرين، حتى إذا كان "الكـل متسـاوي" أمـام القانون.

لقد مكث الرأسماليون عدة قرون لكـي يشـيدوا نظـم احتكارهم وسيطرتهم على وسائل الإنتاج.

ففي إنجلترا، على سبيل المثال، كان على البرلمان فـي القرنين السابع والثامن عشر أن يمرر أولا سلسلة من اللوائح الصارمة والتي قضت على الفلاحين بالطرد من أراضـيهم التي حرثوها لقرون عديدة، أي وسائل إنتاجهم.

وأصبحت الأرض ملكاً لقسم من الطبقة الرأسمالية، وتم إجبار سكان الريف على بيع عملهم للرأسماليين أو أن يموتوا من الجوع.

وعندما حقق الرأسماليون هذا الاحتكار علـى وسـائل الإنتاج، منحوا الجماهير الحرية والمسـاواة الشـكلية فـي ممارسة الحقوق السياسية معهم.

فمهما بلغت "الحرية" بالعمال، كان علـيهم أن يعملـوا للبقاء على قيد الحياة.

ونجد لدى الاقتصاديين المساندين للرأسـمالية تفسـيرا بسيطا لما حدث في تلك المرحلة. فهم يقولـون أنـه بدفعـه للأجور، يشتري الرأسمالي عمل العامل.

ويجب عليه أن يدفع ثمنا منصفا له، وإلاّ سوف يتركـه العامل ليعمل عند آخر.

فالرأسمالي يعطي "أجر يومي منصف" وفي المقابل يجب أن يعطي العامل "عمل يومي منصف" .

كيف إذن يفسرون الربح؟

يقولون إن الربح يعتبر "مكافأة" للرأسمالي على "تضحيته" في السماح باستخدام وسائل إنتاجه (رأسماله).

وتعتبر هذه الأطروحة غير مقنعة لأي عامل يفكر في الأمر لمدة دقيقة واحدة.

خُذ مثلا شركة تعلن عن "معدل ربح صافي" ١٠%. فهي تقول أنه إذا كانت تكلفة الآلات والمصانع كلها وغيرها التي تمتلكها تبلغ ١٠٠ مليون جنيه إسترليني، فسيتبقى لهم ١٠ مليون إسترليني كربح بعد دفع الأجور وتكلفة المواد الخام وإحلال الآلات المتهالكة في السنة.

وأنت لا تحتاج أن تكون عبقريا لترى أنه بعد عشرة أعوام ستكون الشركة قد حققت إجمالي ربح ١٠٠ مليون جنيه إسترليني - أي التكلفة الكلية لاستثماراتهم في البداية.

فإذا كانت "التضحية" هي التي تُكافَأ، فبالتأكيد بعد العشرة أعوام الأولى ستكون كل الربحية قد انتهت.

وعند هذه النقطة، سيكون الرأسماليون قد حصلوا على المبلغ الكامل الذي وضعوه كرأسمال في البداية. ولكن في الواقع، أصبح الرأسمالي الآن أكثر ثراء عن السابق بالضعف.

فهو يمتلك استثماره الأصلي و الأرباح المتراكمة.

أما بالنسبة للعمال في هذه الأثناء، فهم قد ضحوا بمعظم طاقتهم التي تعينهم على الحياة وذلك بالعمل في المصنع لمدة ٨ ساعات يوميا، أي ٤٨ ساعة أسبوعيا.

هل أصبحوا أكثر ثراء بالضعف في نهاية الأعوام العشرة عن البداية؟

بالطبع لا.

وحتى إذا كان العامل يدخر بشكل متصل، فهو لن يستطيع أن يشتري أكثر من تليفزيون ملون مثلا أو سيارة مستعملة، أو ما شابه ذلك.

فالعامل لن يتمكن أبدا من أن يدخر المال الذي يجعله قادرا على شراء المصنع الذي يعمل به.

وهكذا، "فالعمل اليومي المنصف مقابل الأجر اليومي المنصف" قد ضاعف من رأسمال الرأسمالي بينما ترك

العامل بدون رأسمال وبدون بديل غير أن يستمر في العمـل بنفس الأجر تقريبا.

فـ "الحقوق المتساوية" للرأسمالي والعامل قد تزايـدت بشكل غير متساوي.

إن واحدة من أعظم اكتشافات كارل ماركس هو تفسيره لهذا التناقض الواضح. فليس هناك أي آليـة تفـرض علـى الرأسمالي أن يدفع لعماله القيمة الكاملة لعملهم.

فالعامل الذي يعمل في الصناعات الهندسية اليوم، على سبيل المثال، يمكن أن ينتج ما قيمته ٤٠٠ جنيه إسترليني في الأسبوع الواحد.

ولكن هذا لا يعني أنه سيحصل على نفس هـذا المبلـغ كأجر، ففي ٩٩% من الحالات، يحصل العامل علـى أقـل بكثير من هذا المبلغ.

أما البديل بالنسبة للعامل فهو أن يجوع (أو يعيش على المبالغ التعيسة التي يقدمها له الضمان الاجتماعي).

ولذلك فالعمال يطالبون ليس بالقيمة الكاملة لما ينتجون، ولكن ما يكفي لتوفير ظروف معيشية محتملة. فالعامل يأخـذ أجرا يكفيه فقط لكي يستطيع بذل كل مجهوده وكـل قدرتـه

على العمل يوميا (وهو ما أطلق عليه ماركس قـوة عملـه) لحساب الرأسمالي.

ومن وجهة نظر الرأسمالي، إذا تم دفع أجـر للعمـال يكفيهم لمواصلة العمل وتنشئة أطفالهم كجيـل جديـد مـن العمال، فهم بذلك يحصلون على مبلغ منصف لقوة عملهم.

ولكن قيمة الثروة التي يحتاجونها للحفاظ على مواصلة العمال للعمل أقل كثيرا جدا من قيمة الثروة التي ينتجونهـا من خلال عملهم - أي قيمة قوة عملهم أقل كثيرا جـدا مـن القيمة التي حققوها من خلال عملهم.

والفرق يذهب إلى جيوب الرأسمالي. أطلـق مـاركس على ذلك "فائض القيمة".

التوسع الذاتي للرأسمال

إذا قرأت كتابات المتعاطفين مع النظام القائم، فسـوف تلاحظ أنهم يشتركون في اعتقاد من نوع غريب.

فالمال بالنسبة لهم له خاصية سحرية، ويمكن أن ينمـو مثل النبات أو الحيوان.

فعندما يضع الرأسمالي أمواله في البنك، فهو يتوقـع أن قيمتها ستزيد.

وعندما يستثمرها في شراء أسهم شركة ما مثل يونيليفر مثلا، فهو يتوقع أنه سيكافأ بمبالغ طازجة من الأمـوال كـل عام على هيئة فوائد.

لاحظ كارل ماركس هذه الظاهرة والتي أطلـق عليهـا "التوسع الذاتي للرأسمال" وشرع في تفسيرها.

فكما شهدنا سابقا، لم يبدأ ماركس من نقطة النقود بـل من العمل ووسائل الإنتاج.

في مجتمعنا الحالي، أولئك الذين يملكون ثـروة كافيـة يمكنهم شراء وسائل الإنتاج، ثم يفرضون على الأشـخاص الآخرين أن يبيعوا لهم العمل الذي يحتاجونه لتوظيف وسائل الإنتاج.

إن سر "التوسع الذاتي للرأسمال"، أو القدرة الإعجازيـة للنقود على النمو لأولئك الذين يملكون الكثير منها يكمن فـي بيع وشراء هذا العمل.

دعنا نأخذ مثالاً بعامل، وسوف نطلق عليه جاك.

يجد جاك وظيفة عند أحد الرأسماليين وليكن مثلا السيد براوننج براون.

إن العمل الذي يستطيع جاك أن ينتجه في ثماني ساعات من العمل سوف يحقق قيمة أكبر من الثروة - ربما تبلغ ٤٨ جنيه إسترليني.

ولكن جاك سيكون مستعدا للعمل في مقابل قيمة أقل من ذلك لأن البديل هو الاعتماد على الضمان الاجتماعي.

فجهود أعضاء البرلمان مـن المناصـرين للرأسـمالية سوف تحاول بأي طريقة أن يحصل جاك علـى ١٢ جنيـه إسترليني فقط في اليوم الواحد من الضمان الاجتماعي لكـي تضمن أنه سوف يعيش بالكاد على هذا المبلغ هو وأسرته.

وهم يفسرون ذلك بأنهم إذا أعطوه مبلغا أكبر فسـوف "يحطم حافزه للعمل".

وإذا أراد جاك أن يحصل على أكثـر مـن ١٢ جنيـه إسترليني في اليوم فعليه أن يبيع قوة عمله حتـى إذا كـان سيحصل على أقل من ٤٨ جنيه إسترليني كقيمة للثروة التي ينتجها في ٨ ساعات عمل.

وربما يكون جاك مستعدا لأن يعمل في مقابل متوسـط الأجر الذي يبلغ ٢٨ جنيه إسترليني في اليوم.

أما الـ ٢٠ جنيه إسترليني الفارق بين المبلغين فسيذهب إلى جيب السيد براوننج، حيث يعتبر هذا فائض القيمة الـذي تحقق للسيد براوننج.

فلأن لديه ما يكفي من الثروة لشـراء السـيطرة علـى وسائل الإنتاج في المقام الأول، فإن السيد بـراوننج بـراون يمكنه ضمان أن يصبح أكثر ثراء من خلال الـ ٢٠ جنيـه إسترليني التي يستخلصها يوميا من كل عامل لديه. وهكـذا، فإن أمواله تنمو ورأسماله يتوسع، ليس بسبب قانون ما فـي الطبيعة، ولكن لأن سيطرته على وسائل الإنتاج تسمح له بأن يحصل على عمل شخص آخر بثمن أرخص.

وبالطبع، فإن السيد براوننج ربما لا يحصل بالضرورة على مبلغ الـ ٢٠ جنيه بكامله لنفسه، حيث أنـه يمكـن أن يكون مؤجراً للمصنع أو الأرض، أو ربما يكون قد اقترض بعض من رأسماله في البداية من أعضاء آخرين في الطبقـة الحاكمة. وبذلك فهم يطالبونه بأن يقتطع من فـائض القيمـة ليسدد لهم ما اقترضه.

وهكذا، فربما أنه يسدد لهم ١٠ جنيه كقيمة للإيجـار أو الفائدة أو الأسهم المالية، تاركا لنفسه الـ ـ ١٠ جنيـه فقـط الأخرى كربح.

إن أولئك الذين يعيشون على عوائد الأسهم والسـندات غالبا لم يروا جاك أبدا في حياتهم. وعلى رغم ذلك، لم تكن أبدا القوة الروحية للجنيه هي التي وفرت لهم الدخل، بل القوة البدنية لجاك هي التي فعلت ذلك.

فعوائد الأسهم والفوائد والأرباح قد أتت كلها من فائض القيمة.

فما الذي يحدد على كم يجب أن يحصل جاك كمقابـل لعمله؟

إن صاحب العمل سوف يحاول أن يدفع أقل ما يمكـن، ولكن في الواقع هناك حدود لا يستطيع أن يتعداها.

أحد هذه الحدود هي القدرة البدنية - فهو لن يستفيد شيئا إذا أعطى العمال أجورا سيئة جـدا تجعلهـم لا يسـتطيعون العيش أصحاء ويعانون من سوء التغذية وانعدام القدرة على العمل.

فالعمال يجب أيضا أن تكون لـديهم المقـدرة البدنيـة للذهاب والعودة من وإلى العمل يوميا، وأن يكون لديهم مكانا يستريحون فيه في الليل حتى لا ينامون في الصـباح علـى آلاتهم في المصنع.

وانطلاقا من وجهة النظر هذه، فربما يكون من الأفضل دفع أجور تتيح للعمال "بعض من الترفيـه" - مثـل شـرب بعض البيرة في المساء، أو مشاهدة التليفزيون، أو الإجازات الموسمية.

إن هذه الأشياء تجعل العامل أكثر نشاطا وأكثر قـدرة على العمل؛ فهي تعمل على تزويده بالوقود لرفع قوة عمله.

وإنها لحقيقة هامة معرفة أنه إذا "انخفضـت الأجـور كثيرا" فهذا يؤدي إلى انخفاض إنتاجية العمل.

كما أن الرأسمالي لديه أمرا آخر يقلقه.

فشركته سوف تظل في السوق لسـنوات طويلـة، أي أطول من العمر الافتراضي للطابور الحالي من العمال.

وستصبح الشركة في حاجة إلى عمل أطفالهم، ولـذلك فعلى أصحاب العمل أن يدفعوا أجورا للعمال تكفيهم لتنشـئة أطفالهم.

ويجب عليهم أيضا أن يتأكدوا مـن أن الدولـة تـوفر لهؤلاء الأطفال مهارات معينة (مثل القراءة والكتابـة) مـن خلال النظام التعليمي.

ومن واقع الممارسة، هناك شيء آخر هام أيضا: وهـو ما يعتقد العامل نفسه أنه "أجر معقول".

فالعامل الذي يحصل على أقل بكثير مما يعتقد أنه أجرا معقولا ربما يهمل عمله ولا يهتم بضياعه حيث أنه أصـبح بالنسبة له "غير مجدي".

إن كل هذه العوامل التي تحدد أجر العامل يوجد بينهـا شيء مشترك، فهي كلها تتجه نحو التأكد من أن العامل لديه الطاقة الكافية، أو قوة العمـل، التـي يشـتريها الرأسـمالي بالساعة.

والعمال يحصلون على الأجور التي تمكنهم وأسرهم من البقاء على قيد الحياة وتكون لديهم القدرة على العمل.

ففي المجتمع الرأسمالي الحالي، هنـاك نقطـة يجـب التركيز عليها.

إن هناك مبالغ ضخمة من الثروة تنفق على أشياء مثـل قوات البوليس والأسلحة، حيث تستخدم هذه الأشياء لصـالح

الطبقة الرأسمالية من قبل الدولة. وفي الحقيقة فهـي تنتمـي للطبقة الرأسمالية على الرغم من أنها تعمل بواسطة الدولة.

والقيمة التي يتم إنفاقها علـى تلـك الأشـياء تنتمـي للرأسماليين وليس للعمال. ولذلك، فهي تعتبر أيضا جزء من فائض القيمة.

فائض القيمة = الربح + الإيجار + الفوائد + الإنفـاق على البوليس والجيش وغيرهما.

الفصل الخامس
نظرية العمل للقيمة

"ولكن الماكينات ورأس المال تنتج السلع مثلها في ذلك مثل العمل. ولذلك، فمن العدل إذن أن يأخذ كل من رأس المال والعمل نصيبه من الثروة المنتَجة.

إن كل (عنصر إنتاجي) يجب أن يأخذ مكافأته."

هكذا يرد بعض الأشخاص الذين تعلموا القليل عن الاقتصاد الرأسمالي على التحليل الماركسي للاستغلال وفائض القيمة.

وللوهلة الأولى، تبدو هذه المعارضة منطقية إلى حد ما.

فبالتأكيد، أنت لا تستطيع إنتاج البضائع بدون رأسمال؟

والماركسيون لم يدعوا أبدا أن ذلك ممكنا. ولكن نقطة البداية عندنا مختلفة، فنحن نبدأ بالسؤال:

من أين يأتي رأس المال؟

وكيف ظهرت للوجود وسائل الإنتاج أصلا؟

ليس من الصعب الإجابة على هذه الأسئلة.

فكل شيء استخدمه البشر تاريخيا لإنتاج الثروة - سواء فؤوس العصر الحجري أو الكمبيوتر الحديث - قـد أنتجـه عمل الإنسان.

فحتى تلك الأدوات التي استخدمت في تشكيل الفـؤوس كانت هي نفسها نتاج عمل سابق.

إن هذا هو الذي جعل كارل ماركس يطلق على وسائل الإنتاج بـ "العمل الميت".

فعندما يتفاخر رجال الأعمال برأس المال الذي يملكونه، فإنهم في الحقيقة يتفاخرون بأنهم يمتلكون السيطرة على حجم هائل من عمل الأجيال السابقة - وهذا لا يعني عمل أجدادهم - وهم الذين عملوا بنفس المقدار الذي يعمل به أبناءهم الآن.

إن الفكرة القائلة بأن العمل هو مصدر الثروة - وهو ما يطلق عليه عادة بـ "نظرية العمل للقيمة" - لـم تكـن فـي الأساس من اكتشاف ماركس.

فكل كبار الاقتصاديين البرجوازيين حتى وقته قبلوا بهذه النظرية.

فنجد رجال مثل الاقتصـادي الاسـكتلندي آدم سـميث والإنجليزي ديفيد ريكاردو كانوا يكتبون عندما كـان نظـام

الصناعة الرأسمالية ما زال حديثا - في السنوات القليلة التي سبقت وتبعت الثروة الفرنسية.

لم يكن الرأسماليون هم الطبقة المسيطرة بعـد وكـانوا يحتاجون التعرف على المصدر الحقيقي للثروة إذا كان لهـم أن يتحكموا فيه. خدم كل من سميث وريكاردو مصـالحهما بإقناعهم أن العمل هو الذي ينتج الثروة، وبالتالي فإذا أرادوا بناء ثرواتهم يجب عليهم أن "يحرروا" العمل مـن سـيطرة الحكام القدامى الذين سبقوهم في عصر ما قبل الرأسمالية.

ولكن بعد وقت ليس بطويل، بدأ المفكرون المقربون من الطبقة العاملة أن يوجهوا تلك النظرية ضد أصدقاء سـميث وريكاردو، بقولهم: إذا كان العمل ينتج الثروة، فالعمل ينـتج رأس المال. وهكذا، تصبح "حقوق رأس المال" مـا هـي إلا حقوق اغتصاب العمال.

وبعد وقت قصير، أعلن الاقتصاديون الـذين يـدعمون رأس المال أن نظرية العمل للقيمة ما هي إلا كـلام فـارغ. ولكن إذا قمت بطرد الحقيقة من الباب الأمامي فمن عادتهـا أن تدخل من الباب الخلفي.

قم بفتح الراديو.

استمع إليه فترة كافية وسوف تسمع بعـض النقـاد أو غيرهم يدعون أن مشكلة الاقتصاد البريطاني تتمثل فـي أن "الأفراد لا يعملون بجدية بما فيه الكفاية"، أو بطريقة أخـرى لقول نفس الشيء، "إن الإنتاجية منخفضة جدا." إنس لدقيقـة إذا كانت هذه الأطروحة صحيحة أم لا، وبدلا من ذلك، فكر بعمق في مضمونها. فهم لا يقولون أبدا أن "الآلات لا تعمـل بكفاءة عالية". لا، فاللوم دائما يلقى على البشر - العمال.

إنهم يدعون أنه إذا عمل العمال بكفاءة أكثـر، فسـوف تزداد الثروة وسوف يسمح ذلك باستثمارات أكبر فـي آلات جديدة. إن الأفراد الذين يستخدمون هذه الأطروحة ربمـا لا يعرفون ذلك، ولكنهم يقولون أن العمل الكثير سـوف ينـتج رأس مال أكثر. فالعمل هو مصدر الثروة.

فمثلا، إذا كان لدي خمسة جنيهات في جيبي، فما هـي فائدتها بالنسبة لي؟ ففي النهاية ما هي إلا ورقة مطبوعة.

ولكن قيمتها بالنسبة لي تكمن في أنني أستطيع - مـن خلال مبادلتها - أن أحصل على شيء مفيد قـام بصـناعته شخص آخر بواسطة عمله. فالخمسة جنيهات هذه في الحقيقة

ما هي إلا وسيلة للحصول على السلع التي بذل فيها الكثيـر من العمل.

وإذا كان لدي عشرة جنيهـات فهـذا يعنـي إمكانيـة الحصول على ضعف العمل المبذول، وهلم جرا.

فعندما نقيس الثروة فنحن في الحقيقة نقيس العمل الذي بذل لإنتاجها.

وبالطبع، ليس كل الأشخاص ينتجون بنفس المقدار وفي نفس الوقت.

فإذا شرعت مثلا في صناعة طاولـة، فربمـا أقضـي خمسة أو ستة أضعاف الوقت اللازم للنجار المـاهر لينـتج نفس الشيء.

ولكن لن يفكر أحد أبدا أن ما صنعته يساوي خمسـة أو ستة أضعاف قيمة الطاولة التي صنعها النجار الماهر . فقيمة الطاولة سوف تقدر طبقا لكم العمل الـذي يحتاجـه النجـار لإنتاجها، وليس عملي أنا.

قل مثلا أن الطاولة سوف تأخذ سـاعة مـن النجـار لصناعتها، ففي هذه الحالة سيقال أن قيمة الطاولة بالنسبة لهم تساوي ساعة من العمل. ويصبح هذا هو الوقت الضـروري

لصناعتها بافتراض نفس المستوى المعتاد في الصناعة والتكنولوجيا والمهارات المستخدمة في المجتمع الحالي.

ولهذا السبب، فلقد أصر ماركس على أن مقياس قيمة شيء ما ليس هو مجرد الوقت الذي يأخذه الفرد لصناعتها، ولكن الوقت اللازم الذي سيأخذه الفرد الذي يعمل في مستوى متوسط من التكنولوجيا والمهارة - وهو الذي أطلق عليه ماركس "وقت العمل الضروري اجتماعيا." وتعتبر هذه النقطة هامة لأن التطور التكنولوجي للرأسمالية يتقدم بشكل مستمر وهذا يعني أن إنتاج السلع سوف يحتاج عمل أقل فأقل.

فعلى سبيل المثال، عندما صنع الراديو صنع من صمامات ثرمونية مما جعل سعره غاليا جدا لأنه أخذ عملا شاقا في صناعة الصمامات وربطها بالأسلاك الكهربية ... إلخ.

ثم تم اكتشاف الترانزستور والذي تم صناعته وربطه بجهد عمل أقل بكثير. وفجأة، وجد كل العمال في المصانع التي مازالت تنتج الراديو ذو الصمامات أن قيمة الذي يصنعونه انخفضت.

فقيمة الراديو لم تعد تحسـب بوقـت العمـل الـلازم لصناعتها بواسطة الصمامات، ولكن بدلا مـن ذلـك فهـي تحسب بالوقت المستخدم في صناعة الترانزستور.

وهناك نقطة أخيرة حول هذا الموضـوع. إن أسـعار بعض السلع تتذبذب بشكل كبير - من يـوم لآخـر أو مـن أسبوع لآخر.

ويمكن أن تحدث هذه التغيرات نتيجة العديد من الأشياء إلى جانب التغيرات في كم العمل المبذول في صناعتها.

عندما قتل الصقيع في البرازيل كل نبات القهوة، ارتفع سعر القهوة كثيرا بسبب حدوث نقص في العالم كله، كما أن الناس كانت مستعدة لأن تدفع أكثر.

وغدا، إذا حدثت كارثة طبيعية دمرت كل التليفزيونـات في بريطانيا مثلا، فبالتأكيد سوف ترتفع أسعار التليفزيونـات بنفس الطريقة.

فما يطلق عليه الاقتصاديون بـ ـ "العـرض والطلـب" يؤدي باستمرار إلى تلك التقلبات في الأسعار.

ولهذا السبب، فالعديـد مـن الاقتصـاديين المؤيـدين للرأسمالية يقولون أن نظرية العمل للقيمة ليس لهـا معنـى، ويضيفون أن ما يعنيهم فقط هو العرض والطلب.

ولكن هذا يعتبر كلاما فارغا.

فهذه الأطروحة تتناسى أنه عندما تتقلب الأشياء فهـي عادة تتقلب بمقدار مستوى معين.

إن البحر يعلو ويهبط بسبب المد والجذر، ولكن هـذا لا يعني أننا لا نستطيع القول بأن هناك نقطـة ثابتـة بالنسـبة لحركته وهي ما نطلق عليها "مستوى البحر."

وبنفس الطريقة، فحقيقة أن الأسعار تعلو وتهبط من يوم إلى آخر لا يعني أنه ليس هناك قيمة ثابتة يتم حولهـا هـذا التقلب.

فعلى سبيل المثال، إذا دمرت كل التليفزيونات فإن أول الإنتاج الجديد سيكون عليه طلب كثير وسيكون سعره عاليا. ولكن بعد وقت قصير ستنتج تليفزيونات أكثـر فـأكثر فـي السوق وستتنافس مع بعضها حتى تجعل الأسـعار تـنخفض لتتقارب مع قيمتها في وقت العمل المبذول لصناعتها.

المنافسة والتراكم

كان هناك وقت بدت فيه الرأسمالية كنظـام دينـاميكي وتقدمي. وعلى مدار معظم تاريخ الإنسان، كان يسيطر على حياة غالبية الرجال والنساء الكدح والاسـتغلال.ولـم تغيـر الرأسمالية الصناعية هذا الوضع عندما ظهرت في القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولكن بدا أن الرأسمالية قد وجهت هذا الكدح والاستغلال لهدف مفيد لها.فبدلا من إهدار كميات ضخمة من الثروة على رفاهية بعض الأرستقراطيين الطفيليين أو في بنـاء مقـابر فخمة للملوك الميتين أو في حروب بلا جـدوى يريـد مـن خلالها ابن أحد الملوك أن يحكم مكان ما، قامت الرأسـمالية باستخدام الثروة من أجل إنتاج ثروة أكبر.

فلقد شهدت فترة نمو الرأسمالية نمـوا فـي الصـناعة والمدن ووسائل المواصلات على مستوى ليس له مثيل مـن قبل في تاريخ الإنسانية.

ومن الغريب كما يبدو اليوم أن تكون أماكن مثل أولدهام وهاليفاكس وبينجلي (مدن في إنجلتـرا - المتـرجم) مقـرا للمعجزات. فلم تشهد الإنسانية من قبل ذلك الكم من القطـن

والصوف الخام تتحول بسرعة شديدة إلى أقمشة من أجل توفير الملبس للملايين. ولم يحدث هذا بسبب فضائل خاصة عند الرأسماليين.

فهم غالبا ما كانوا قوماً متعجرفين تتملكهم فقط الرغبة في الحصول على ثروة أكبر في أيديهم، وذلك بدفع أقل الأجور الممكنة للعمل الذي يستخدمونه.

لقد كان هناك العديد من طبقات الحكام من قبلهم مثلهم تماما في ذلك، ولكن بدون هدف بناء الصناعة. اختلاف الرأسماليون عنهم في نقطتين أساسيتين.

النقطة الأولى قد عرضناها من قبل، وهي تتلخص في أنهم لم يملكوا العمال.

ولكن بدلا من ذلك، فهم يدفعون لهم أجرا على أساس قدرتهم على العمل في الساعة، أي قوة عملهم. كما أنهم استخدموا العبيد المأجورين، وليس العبيد. أما النقطة الثانية فهي أنهم لم يستهلكوا بأنفسهم السلع التي أنتجها عمالهم.

فبالنسبة للإقطاعيين، فلقد عاشوا مباشرة على اللحم والخبز والجبن والخمور التي أنتجها عبيدهم.

أما الرأسماليين، فهم يعيشون من خلال بيع السلع التـي أنتجها العمال لأناس آخرين.

ولقد أعطى هذا الأفراد الرأسماليين حرية أقل عن مالك العبد أو الإقطاعي في التعامل بالطريقة التي يفضلها. فمـن أجل بيع السلع، كان على الرأسماليين أن ينتجوهـا بأسـعار رخيصة بقدر الإمكان.

فلقد امتلك الرأسمالي المصنع وكان قويا للغاية داخله.

ولكنه لم يستطع استخدام قوته كما أراد، وكان عليه أن يحني رأسه أمام متطلبات المنافسة مع المصانع الأخرى.

ولنرجع مرة أخرى إلـى صـديقنا الرأسـمالي السـيد براوننج براون. حاول أن تفترض أن الكمية المنتجـة مـن الأقمشة القطنية في مصنعه تأخذ ١٠ سـاعات مـن وقـت العمال لإنتاجها، بينما هناك مصنع آخر يستطيع إنتاج نفـس الكمية في ٥ ساعات فقط من وقت العمال.

إن السيد براوننج لن يستطيع أن يبيع بضـاعته بسـعر يساوي العشر ساعات عمل.

فلن يفكر أحد أبدا أن يشتري بسعر أعلى بينمـا هنـاك ملابس أرخص في محل قريب.

إن أي رأسمالي يود أن يستمر في البيـزنس يجـب ان يضمن أن عماله يعملون بأقصى سرعة ممكنة. ولكن ليست هذه هي نهاية القصة. إنه يجب أن يضمن أيضا أن عمالـه يعملون طبقا لأحدث تقنية متوفرة بحيث ينتج عملهـم فـي الساعة أكبر كمية من السلع كما ينـتج عمـال الرأسـماليين الآخرين.

الرأسمالي الذي يريد أن يستمر في البيزنس يجـب ان يضمن أنه يمتلك أكبر كمية من وسائل الإنتـاج، أو - كمـا أشار ماركس - أن يراكم رأس المال!

إن المنافسة بين الرأسماليين أنتجت قوة نظام السـوق، وهي القوة التي سيطرت تماما على الجميع.

فهي التي أجبرتهم على الإسراع فـي عمليـة الإنتـاج طوال الوقت وعلى أن يستثمروا كل ما يستطيعونه في شراء الآلات الجديدة.

وهم يستطيعون أن يشتروا الآلات الجديدة (وبـالطبع وسائل رفاهيتهم من جانب آخر) فقط إذا جعلوا أجور العمال منخفضة قدر استطاعتهم.

لقد كتب ماركس في أكبر أعماله رأس المال، أن الرأسماليين يشبهون البخيل الذي يسيطر عليه هدف الحصول على المزيد والمزيد من الثروة. ولكن:

"ما نراه في البخيل كخاصية في شخصيته، نجده عند الرأسمالي نتاج لآلية اجتماعية حيث يمثل هو فيها ترساً واحداً ...

فتطور الإنتاج الرأسمالي يجعل من الضروري باستمرار الزيادة من حجم رأس المال المستثمر في صناعة معينة، والمنافسة تجعل كل فرد رأسمالي يشعر بالقوانين الهامة للإنتاج الرأسمالي كنوع من القوانين القهرية التي تُفرض عليه من الخارج. وهي تضطره لأن يوسع من رأسماله باستمرار من أجل الحفاظ عليه.

وهو لا يستطيع زيادة رأس المال إلا بوسائل التراكم المستمرة."

"التراكم، التراكم! هذه هي كلمة السر."

إن الإنتاج لا يتم من أجل تلبية الاحتياجات الإنسانية - حتى الاحتياجات الإنسانية لدى الطبقة الرأسمالية - ولكن لكي يجعل الرأسمالي يعيش في تنافس مع رأسمالي آخر.

والعمال الذين يعملون لدى كل فرد رأسمالي يجدون أن حياتهم تسيطر عليها نزعة أصحاب العمل نحو تحقيق التراكم بسرعة لكي يسبقوا منافسيهم.

وكما كتب ماركس في البيان الشيوعي:"في المجتمع البرجوازي، يعتبر العمل الحي وسيلة لتراكم العمل الميت ... فالرأسمال يمتاز بالاستقلالية والفردية، بينما الإنسان الحي يعتمد على الآخرين ولا يتمتع بالفردية."

إن الدافع الملزم للرأسماليين للتراكم والمنافسة بين بعضهم البعض يفسر السرعة الشديدة للأمام نحو التصنيع وذلك في السنوات الأولى للنظام.

ولكن كانت النتيجة شيئا آخر - أزمة اقتصادية متكررة. والأزمة ليست بالشيء الجديد، فهي قديمة قدم النظام نفسه.

الفصل السادس
كارثة اقتصادية

"تراكم الثروة من ناحية، والفقر من ناحية أخرى".

هكذا لخص ماركس اتجاه الرأسمالية. كل رأسمالي يخشى المنافسة من الآخرين، لذلك يشغل موظفيه بأقصى طاقة ممكنة، ويدفع أقل أجور يمكن أن يفلت بها.

النتيجة هي عدم تناسب بين النمو الكبير لوسائل الإنتاج من ناحية، والنمو المحدود في الأجور وعدد العمال الموظفين (المستخدمين)على الناحية الأخرى. هذا، كما أصر ماركس كان السبب الرئيسي لكارثة اقتصادية.

أسهل طريقة للنظر لهذا هو أن نسأل :

من يشتري كمية البضائع المتزايدة بكثرة؟

الأجور المنخفضة للعمال تعني أنهم لا يستطيعون تحمل شراء البضائع التي أنتجها عملهم هم. والرأسماليون لا يستطيعون زيادة الأجور، لأن هذا سيدمر الربح، القوة الدافعة للنظام.

لكن إذا كانت الشركات لا تستطيع بيع البضـائع التـي تنتجها، يكون عليهم إغلاق المصانع وطرد العمال.

بهذا ينخفض الإجمالي الكلي للأجور أكثر، وبالتـالي لا تستطيع المزيد من الشركات بيع بضـائعها. تبـدأ " كارثـة إفراط في الإنتاج"، حيث تكدس البضائع فـي السـوق، ولا يستطيع الناس تحمل شراؤها.

كان هذا ملمح متواتر للمجتمع الرأسـمالي خـلال ال ١٨٠ عاما الماضية.

لكن أي فهم سريع وفطن للنظام سيشير بسرعة إلى أنه يجب أن يكون هناك طريق سهل للخروج من الكارثة.

كل ما نحتاجه هو أن يستثمر الرأسماليون أرباحهم فـي مصانع وآلات جديدة.

هذا سيوفر وظائف للعمال، الذين بـدورهم سـيكونون وقتها قادرين على شراء البضائع غير المباعة. هذا يعني أنه طالما يوجد استثمار جديد يمكن بيع كل البضـائع المنتجـة ويمكن للنظام أن يوفر توظيف كامل.

لم يكن ماركس غبيا وأدرك هذا.

بالفعل كما رأينا، لقد أدرك أن ضغط المنافسة على الرأسماليين ليستثمروا، كان جوهريا للنظام.

لكنه تسائل، هل هذا يعني أن الرأسماليين سيستثمرون كل أرباحهم، كل الوقت؟

الرأسمالي سيستثمر البضائع فقط إذا أعتقد أنه يضمن تحقيق ربح معقول.

إذا لم يكن يعتقد أنه يمكن تحقيق مثل هذا الربح، فلن يخاطر بأمواله في استثمار. سيضعها في البنك ويتركها هناك.

إذا كان الرأسمالي سيستثمر أم لا يعتمد على كيفية تقديره للوضع الاقتصادي عندما يبدو ملائما، وقتها يسرع كل الرأسماليين للاستثمار في نفس الوقت.

يتصارعون معا بحثا عن مواقع للإنشاءات، يشترون الآلات، يطوفون الأرض بحثا عن مواد خام، يدفعون أكثر من أجل العمالة الماهرة. عادة ما يسمى هذا الوضع بالرواج.

لكن المنافسة المجنونة على الأرض، المواد الخام والعمالة الماهرة ترفع أسعار هذه الأشياء.

وفجأة يتم الوصول إلى نقطة تكتشـف عنـدها بعـض الشركات أن تكاليفها قد ارتفعت كثيرا مما جعل كل أرباحهم تختفي.

وهكذا يهوي الرواج الاستثماري في الحال إلى كسـاد استثماري. لا أحد يريد آلات جديدة فتدخل صناعة المعـدات والآلات في أزمة.

لا أحد يريد كل الحديد والصلب الذي يتم إنتاجه – فجأة تصبح صناعة الصلب تعمل بأقل من قدرتها وتصبح غيـر مربحة، ينتشر الإغلاق والإقفال من صناعة لصناعة، ممـا يدمر الوظائف – ومعها قدرة العمال على شـراء منتجـات صناعاتهم.

تاريخ الرأسمالية هو تاريخ مثل هذه الترنحات الدورية التي تؤدي إلى جنون جوع العمال العاطلين خارج المصـانع الفارغة، بينما يتعفن مخزون البضائع غير المرغوب فيها.

تخلق الرأسمالية أزمات الإفراط في الإنتاج هذه دوريا، لأنه لا يوجد تخطيط، لذلك لا توجد طريقة لوقف فرار رأس المال من وإلى الاستثمار كله مرة واحدة.

اعتاد الناس الاعتقاد أن الدولة لا تستطيع وقف هذا عن طريق التدخل في الاقتصاد، زيادة استثمار الدولة عندما كان الاستثمار الخاص منخفضا، وبالتالي خفضه عندما يلحق بـه الاستثمار الخاص. الدولة ستستمر في الإنتاج على ....

متساوية، لكن الأيام الحالية استثمار الدولة أيضـا هـو جزء من الجنون.

انظر إلى الصلب البريطاني.منذ سنوات مضت، عندما كانت الشركة مازالت قطاع عام، قيـل لعمـال الصـلب أن وظائفهم تتقلص لإفساح الطريق للقمائن الأوتوماتيكية الحديثة المصممة لإنتاج المزيد من الصلب بأسعار أكثر رخصا.

الآن يقال لهم إنه مازال هناك المزيد من العمال الـذين يجب أن يفقدوا وظائفهم - لأن بريطانيا لـم تكـن الدولـة الوحيدة التي أقدمت عتلى هذه الخطط الاستثمنارية الضخمة.

فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحـدة، البرازيـل، أوربـا الشرقية وحتى كوريا الجنوبية، كلهم فعلوا نفس الشيء. الآن يوجد فائض عالمي من الصلب - أزمة زيادة في الإنتاج.يتم تخفيض الاستثمار الحكومي وبالطبع عمال الصلب يعـانون في كلا الحالتين.

هذا هو الثمن الذي ما زالت الإنسـانية تدفعـه لنظـام اقتصادي يتم فيه التحكم في إنتاج الثروة الضخمة عن طريق مجموعة صغيرة محظوظة مهتمة فقط بالربح.

لا يهم إذا كانت هذه المجموعات الصغيرة المحظوظـة هذه تمتلك الصناعة مباشرة، أو تتحكم فيها بشكل غير مباشر من خلال تحكمها في الحكومة (كمـا فـي حالـة الصـلب البريطاني).

بينما تستخدم هذا التحكم للمنافسة مع بعضهم الـبعض على أكبر نصيب من الأرباح، سواء محليا أو عالميا، فـإن العمال هم الذين يعانون على الناحية الأخرى.

الجنون الأخير للنظام هو أن أزمة الإفراط في الإنتاج، ليست إفراطا في الإنتاج على الإطلاق. كـل هـذا الصـلب الفائض، على سبيل المثال، يمكن أن يساعد على حل مشكلة الجوع في العالم.

الفلاحون حـول العـالم يضـطرون لحـرث الأرض باستخدام أسلحة خشبية للمحاريث - الأسلحة الصلب يمكـن أن تزيد إنتاج الطعام. لكن الفلاحين لا يملكون نقودا على أية

حال، لذلك النظام الرأسمالي ليس مهتما - لا يوجـد ربـح يمكن تحقيقه.

لماذا تنحو الأزمة لأن تصبح أسوأ؟.

الأزمة لا تحدث فقط بانتظام رتيب.تنبأ ماركس كـذلك بأن الأزمات ستزداد سوءا بمرور الوقت.حتـى إذا حـدث الاستثمار بمعدل متساوي، بدون عدم انتظام، هذا لا يمكن أن يوقف الاتجاه العام تجاه الكارثة.هذا بسبب أن المنافسة بـين الرأسماليين (والدول الرأسمالية) تجبرهم على الاستثمار في المعدات التي توفر العمالة..

في بريطانيا اليوم تقريبا كـل الاسـتثمارات الجديـدة مصممة لتخفيض عدد العمال الذين يتم توظيفهم..

لهذا يوجد عمال أقل في الصناعة البريطانية اليوم عـن ١٠ سنوات مضت، حتى على الرغم مـن أن الإنتـاج زاد خلال هذا الوقت..

فقط عن طريق ترشـيد الإنتـاج، بزيـادة الإنتاجيـة، وتخفيض قوة العمل يمكن للرأسمالي الحصول على نصـيب أكبر من الكعكة بالمقارنة بغيره..

لكن النتيجة بالنسبة للنظام ككل مدمرة..

لأن هذا يعني أن عدد العمال لا يزداد بنفس سرعة الاستثمار..

ومع ذلك فإنه عمل العمال هو مصدر الأرباح، الوقود الذي يبقي النظام مستمرا. إذا قمت بعمل استثمارات أكبر وأكبر، بدون زيادة مقابلة في مصدر الأرباح، فأنت تتجه نحو انهيار - بنفس التأكيد كما لو أنك توقعت قيادة سيارة جاجوار بنفس كمية البترول الكافية لقيادة سيارة صغيرة..

لهذا السبب جادل ماركس منذ ١٠٠ سنة مضت أن نجاح الرأسمالية نفسه في تكويم استثمارات ضخمة في معدات جديدة أدى إلى اتجاه معدل الربح للانخفاض مما يعني كارثة تزداد سوءا..

أطروحة ماركس يمكن تطبيقها ببساطة على الرأسمالية اليوم..

بدلا من الصورة القديمة للأوقات السيئة التي تتحول لأوقات جيدة، للركود الذي يتحول لرواج، يبدو أننا في ركود لا ينتهي أبدا..

أي فترة صعود، أي انخفاض في البطالة يكون محدودا وقصير الأجل..

المدافعون عن النظام يقولون إن هذا بسبب أن الاستثمار ليس عاليا بما يكفي. بدون استثمار جديد لا توجـد وظـائف جديدة، بدون وظائف جديدة لن توجد نقود لشـراء بضـائع جديدة..

حتى الآن، يمكن أن نتفق معهم – لكننا لا نتفـق مـع تفسيرهم للماذا يحدث هذا..

هم يلومون الأجور. الأجور عالية جدا، كما يقولـون، مما يخفض الأرباح إلى أبعد حد..

الرأسماليون يخشون من الاستثمار لأنهم لن يحصـلوا على " مقابل كافي"..

لكن الأزمة استمرت طوال سنوات طويلة، خلال هـذه السنوات أدت السياسات الحكومية في الأجور إلى تخفـيض مستويات معيشة العمال وإلى رفع الأرباح..

شهدت سنوات ٧٥-١٩٧٨ أكبـر خفـض لمسـتويات معيشة العمال هذا القرن، بينما ازداد الأغنياء غنى – رفـع ال ١٠% الموجودين على القمة نصيبهم من الكعكة القوميـة من ٥٧,٨% في ١٩٧٤ إلى ٦٠% في ١٩٧٦.

مازال لا يوجد استثمار كافي لإنهاء الأزمة - وينطبق هذا ليس فقط على بريطانيا، لكن على دول أخرى تم فيها خفض الأجور، على فرنسا واليابان وألمانيا. من الأفضل إذن لنا أن نستمع لما قاله كارل ماركس منذ ١٠٠ سنة مضت، عن الاستماع لهؤلاء الذين يدافعون عن الرأسمالية اليوم.

تنبأ ماركس أنه كلما طال عمر الرأسمالية ، ستصبح أزمتها أسوأ لأن مصدر الربح، العمل، لا ينمو تقريبا بنفس السرعة مثل الاستثمار المطلوب لتشغيل العمال.

كتب ماركس ذلك عندما كانت قيمة الآلات والمعدات اللازمة لتشغيل كل عامل منخفضة نوعا ما. وقد ارتفعت من وقتها لتصل اليوم من ٢٠ ألف إلى ٣٠ ألف استرليني.

المنافسة بين المشروعات الرأسمالية أجبرت الرأسماليين على استخدام آلات أكثر كبرا وأكثر تكلفة.

لقد تم الوصول لنقطة في كل الصناعات عندها أصبح من المسلم به أن الآلات الجديدة تعني عمالا أقل.

تنبأت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية أن التوظيف في الاقتصادات الرئيسية في العالم سيهبط حتى إذا حدثت معجزة وخلقت الاستثمارات وهو ما لن يحدث.

لأن الرأسماليين يهتمون بأرباحهم، وإذا زاد استثمارهم أربعة أضعاف بينما زادت أربـاحهم ضـعفين فقـط فهـم يصبحون فعلا مستاءين.

ومع ذلك فهذا هو ما يجب أن يحدث إذا نمت الصناعة أسرع من مصدر الربح، العمل.

كما أوضح ماركس، سيتجه معدل الربح للانخفاض.

وتنبأ أنه في النهاية سيتم الوصول لنقطة سيبدو فيها أي استثمار جديد مجازفة خطيرة. نطاق الإنفاق المطلوب لشراء معدات وآلات جديدة سيصبح مهولا، لكـن معـدل الـربح سيكون أقل من أي وقت مضى.

عندما يتم الوصول لهذه النقطة، كل رأسمالي أو دولـة رأسمالية يحلم ببرامج استثمار جديـدة وضـخمة ـ ولكـن يخشى تطبيقها خوفا من الانسحاق.

اقتصاد العالم اليوم مماثل لهذا بشـدة. يخطـط روفـر لخطوط إنتاج جديدة ـ لكن يخشى أنها ستخسر نقودا.

الصلب البريطاني يحلم بهذه المصـانع الكبيـرة التـي خططوا لها لكنهم يضطرون لتجميدها لأنهم لا يستطيعون بيع إنتاجهم الحالي.

توقف بناة السفن اليابانيون عن الاستثمار في أحـواض جديدة ـ وبعضا من الأحواض القديمة يتم غلقها.

نجاح الرأسمالية نفسه في بناء آلات أضخم وأكثر إنتاجا أوصل النظام لنقطة تبدو فيها الأزمة الدائمة واضحة.

كانت المجتمعات العبودية للعالم القـديم والمجتمعـات الإقطاعية للعصور الوسطى قد وصلت للنقطة التي فيها إمـا أن تقوم ثورة بتغيير المجتمع أو يدخل في أزمة دائمة يمكـن أن تدفع للخلف. في حالة روما، افتقاد الثورة أدى بالضـبط لتدمير الحضارة الرومانية وللعودة للعصور المظلمة.

في حالة بعض المجتمعات الإقطاعية ـ بريطانيا وفيما بعد فرنسا ـ الثورة دمرت النظام القديم وجعلت حدوث تقدم اجتماعي جديد ممكنا، في ظل الرأسـمالية.الآن الرأسـمالية نفسها تواجه الاختيار بين أزمة دائمة، ستؤدي أخيـرا إلـى إغراق البشرية مرة أخرى في البربرية مـن خـلال الفقـر والحرب، أو ثورة اشتراكية.

الفصل السابع

الطبقة العاملة

بدأ ماركس البيان الشيوعي بعبارة: "تاريخ كل المجتمعات الموجودة حتى الآن كان تاريخ الصراع بين الطبقات".

مسألة كيف استطاعت الطبقة الحاكمة إجبار الطبقات المضطهدة على الاستمرار في إنتاج الثروة لها كانت حاسمة.

بسبب هذا، في كل مجتمع سابق، كانت توجد صراعات متعددة بين الطبقات والتي دائما ما وصلت لذروتها في حرب أهلية:

هبات العبيد في روما القديمة، هبات الفلاحين في أوربا العصور الوسطى، الحروب الأهلية الكبيرة وثورات القرون السابع والثامن عشر.

في كل هذه الصراعات الكبيرة، كانت كتلة القوى الثائرة من القسم الأكثر اضطهادا في المجتمع.

لكن، كما أسرع ماركس بالإضافة، في النهاية ساعدت جهودهم تلك كلها في إبدال أقلية محظوظة حاكمة بأخرى.

لذلك، على سبيل المثال، في الصين القديمة كانت هناك عدة ثورات فلاحية ناجحة ، لكنهم فقط استبدلوا إمبراطـور بآخر.

بالمثل، هؤلاء الذين قاموا بأكبر مجهـود فـي الثـورة الفرنسية كانوا عاريي الأكمام ـ أفقر الطبقات في بـاريس، لكن في نهاية الأمر لم يحكموا المجتمع ولكن حكمه رجـال البنوك والصناعة بدلا من الحاشية والملك.

كان هناك سببين رئيسيين لهذا الفشل من جانب الطبقات الدنيا في المجتمع في الاحتفاظ بالسلطة من جراء الثـورات التي حاربوا فيها. أولا، المستوى العام للثروة في المجتمـع كان منخفضا بدرجة ما.

فقط بسبب أن الكتلة الكبيرة من البشر كانوا موضوعين في فقر مطبق.

وجدت أقلية صغيرة الوقت والفـراغ لتطـوير الفنـون والعلوم للمحافظة على الحضارة. بعبارة أخـرى، الانقسـام الطبقي كان ضروريا إذا كـان للمجتمـع أن يتقـدم. حيـاة الطبقات المقهورة لم تجهزهم لحكم المجتمع. فـي المجمـل

كانوا جهلة، كان عندهم فكرة ضئيلة عن كيف تبدو الأمـور خارج موقعهم الحالي.

وفوق كل شيء، قسمت حياتهم اليومية كلا منهم ضـد الآخر.

كل فلاح كان مهتما بزراعة قطعة أرضه.

كل حرفي في المدينة أدار عمله الصغير وكان إلى حد ما في منافسة مع حرفيين آخرين، ليس متحدا معهم.

ثورات الفلاحين كانت تبدأ بأعداد واسعة مـن النـاس بالنهوض لتقسيم أرض النبلاء الإقطاعيين المحليين، لكن مـا أن يهزم النبيل،، حتى يبدأوا في التشاحن فيما بيـنهم حـول كيفية تقسيمهم للأرض. كما أوضح ماركس، الفلاحون كانوا مثل " بطاطس في حقيبة" يمكن أن يلتحموا معا عن طريـق قوة خارجية لكنهم لم يكونوا قادرين على الترابط بشكل دائم ليعبروا عن مصالحهم الخاصة.

العمال الذين يخلقون الثروة في ظل الرأسمالية الحديثـة يختلفون عن كل الطبقات الدنيا السابقة. أولا، انقسام المجتمع لطبقات لم يعد ضروريا لتقدم البشر.

الكثير من الثروة يتم خلقها حتى أن المجتمع الرأسمالي نفسه يدمر بشكل دوري كميات ضخمة من الثورة خلال الحروب أو الكوارث الاقتصادية. يمكن تقسيم هذه الثروات بالتساوي ويظل المجتمع يشهد ازدهارا للعلم والفنون وما إلى ذلك.

ثانيا، الحياة في ظل الرأسمالية تجهز العمال بطرق كثيرة للتحكم في المجتمع.

على سبيل المثال، الرأسمالية تحتاج العمال المهرة والمتعلمين.

أيضا الرأسمالية تجبر آلاف البشر على الوجود في أماكن عمل ضخمة يكونون فيها على اتصال قريب ببعضهم البعض، ويمكن فيها أن يكونوا قوة مؤثرة لتغيير المجتمع.

الرأسمالية تجعل العمال يتعاونون في الإنتاج داخل المصنع، وهذه المهارات التعاونية يمكن أن تنقلب بسهولة ضد النظام، كما يحدث عندما ينظم العمال أنفسهم في اتحادات.

لأنه يتم حشدهم في تجمعات ضخمة يصبح من الأسهل للعمال أن يتحكموا ديمقراطيا في هيئات مثلها مقارنة بالطبقات المقهورة السابقة.

علاوة على ذلك، تنحو الرأسمالية بشكل متزايد لتحويل مجموعات الناس الذين يرون أنفسهم فوق العمال العاديين (مثل الكتبة أو الفنيين) إلى عمال أجراء مجبرين على تنظيم اتحادات للدفاع عنهم كما يفعل العمال الآخرون.

أخيرا، يسمح تطور الاتصالات ـ السكك الحديدية، الطرق، النقل الجوي، نظم البريد، التليفونات، الراديو والتليفزيون ـ للعمال بالاتصال خارج نطاقهم المحلي أو خارج الصناعة. يمكن بذلك أن ينظموا أنفسهم كطبقة على نطاق قومي وعالمي وهو شيء يفوق أقصى أحلام الطبقات المضطهدة السابقة.

كل هذه الحقائق تعني أن الطبقة العاملة يمكن أن تصبح ليس فقط قوة تثور ضد المجتمع الحالي، لكن يمكن أن تنظم نفسها، تنتخب وتتحكم في ممثليها، حتى تغير المجتمع لما فيه مصلحتها، وليس فقط لتنصيب إمبراطور آخر أو مجموعة مصرفيين.

كما قال كارل ماركس:" كل الحركات التاريخية السابقة كانت حركات أقليات لمصلحة أقليات. الحركة العمالية هـي الحركة الواعية بذاتها المستقلة للأغلبية الواسـعة لمـا فيـه مصلحة الأغلبية الواسعة".

الفصل الثامن

كيف يمكن تغيير المجتمع؟

في بريطانيا، الأغلبية العظمى من الاشتراكيين والنقابيين ظلوا يؤكدون بشكل عام أنه يمكن تغيير المجتمع بدون ثورة عنيفة. كل ما نحتاجه، كما يقولون، هو أن يكسب الاشتراكيون الدعم الشعبي الكافي من أجل التحكم في المؤسسات السياسية التقليدية - البرلمان والمجالس المحلية.

عندئذ سيكون الاشتراكيون في وضع يسمح لهم بتغيير المجتمع عن طريق السيطرة على الدولة القائمة - الخدمة المدنية، السلطة القضائية، البوليس، القوات المسلحة لفرض قوانين في صالح الطبقة العاملة.

بهذه الطريقة تم الادعاء أن الاشتراكية يمكن أن تدخل حيز التنفيذ تدريجيا وبدون عنف ، عن طريق إصلاح الوضع الحالي.

هذه الرؤية دائما ما يشار لها بالإصلاحية، على الرغم من أنك مرارا ستستمع للكلمة مقرونة بكلمات أخرى هي " المراجعة" (لأنها تتضمن مراجعة تامة لأفكار ماركس)، "

الديمقراطية الاجتماعية" (على الرغم من أنـه حتـى ١٩١٤ كان هذا يعني الاشتراكية الثورية)، أو الفابية (إشارة إلـى المجتمع الفابي الذي طالما دعت للرؤيـة الإصـلاحية فـي بريطانيا). وهي رؤية يقبلها يسار وأيضا يمين حزب العمال البريطاني.

الإصلاحية، تبدو للوهلة الأولى، معقولة جدا. فهي تتفق مع ما قيل لنا في المدرسة، في الصحف والتليفزيون ، مـن أن " البرلمان يدير الـبلاد" وأن " البرلمـان ينتخـب طبقـا للرغبات الديمقراطية للشعب".

لكن على الرغم من أن كل محاولة لإدخال الاشـتراكية من خلال البرلمان انتهت بالفشل: كانت هناك ثلاث حكومات عمال بالأغلبية في بريطانيا بعد الحرب – بأغلبيات ضخمة في ١٩٤٥ و ١٩٦٦ – بالرغم من ذلك كله نحن لسنا أقرب للإشتراكية عما كنا عليه في ١٩٤٥.

التجربة خارج بريطانيا هي نفسها. فـي شـيلي فـي ١٩٧٠، تم انتخاب الاشتراكي سلفادور الليندي رئيسا.

وادعي الناس أن هذا كان " طرريقا جديدا" للتحرك نحو الاشتراكية. بعد ثلاث سنوات، أطاح الجنرالات الذين طالـب

منهم الانضمام للحكومة بالليندي وتم تدمير حركـة الطبقـة العاملة الشيلية.

هناك ثلاث أسباب متصلة فيما بينها لضـرورة فشـل الإصلاحية دائما. أولا، بينما تقوم الأغلبيات الاشتراكية فـي البرلمانات بادخال الإجراءات الاشتراكية بالتدريج، تسـتمر القوى الاقتصادية الحقيقية باقية في أيدي الطبقـة الحاكمـة القديمة.

ويمكنهم أن يستخدموا هذه القوة الاقتصـادية لإغـلاق أقسام كاملة من الصناعة، لخلق بطالة، لرفع الأسـعار مـن خلال المضاربة والاختزان، لإرسال النقود للخارج خـالقين أزمة في " ميزان المدفوعات"، لشن حملات صـحفية تلـوم الحكومة الاشتراكية على كل هذا.

لذلك أجبرت حكومة العمال ل " هارولد ويلسون" فـي ١٩٦٤ - ومرة أخرى في ١٩٦٦ - علـى التخلـي عـن الإجراءات التي كان يمكن أن تفيد العمال بسبب حركة النقود للخارج بالجملة التي تقوم بها الشركات والأفـراد الأثريـاء. يصف ويلسون نفسه في مذكراته كيف حدث هذا:" لقد وصلنا الآن إلى الوضع الذي يقول فيه المضاربون الدوليون لحكومة

جديدة منتخبة إن السياسة التي حاربنا على أساسها الانتخابات لا يمكن تطبيقها..الوزير الأول للملكة طلب منه اسدال الستار على الديمقراطية البرلمانية بقبول نظررية أن الانتخابات في بريطانيا هي كوميديا هزليـة، وأن الشـعب البريطـاني لا يستطيع الاختيار بين سياستين".

نحتاج فقط أن نضيف أنه على الرغم من ادعاء ويلسون السخط، إلا أنه على مدى الستة سنوات التالية اتبـع بالفعـل نوعية السياسات التي طالب بها المضاربون.

نفس الخلق المتعمد لأزمة ميزان المـدفوعات أجبـرت حكومة العمال المنتخبة فـي ١٩٧٤ علـى إدخـال ثـلاث مجموعات متتالية من التخفيضات في الإنفـاق العـام فـي المستشفيات، المدارس والخدمات الاجتماعية.

حكومة الليندي في شيلي واجهت تفكك أكبر علـى يـد المشروعات الكبيرة. مرتين تم اغلاق أقسـام كاملـة مـن الصناعة بسبب اضراب الرؤساء، حيث رفعـت المضـاربة الأسعار لمستوى ضخم وأدى تخزين رجال الأعمال للسـلع إلى التزاحم في طوابير من أجل الحصول على ضـروريات الحياة.

السبب الثاني لعدم إمكانية إصلاح الرأسمالية هو أن آلة الدولة القائمة ليست محايدة، لكن مصممة، من أعلى لأسفل، لحفظ المجتمع الرأسمالي. فالدولة تتحكم تقريبا في كل وسائل ممارسة الضغوط المادية ووسـائل العنـف. فـإذا كانـت مؤسسات الدولة محايدة، وتفعل أي شيء تطلبـه منهـا أي حكومة بعينها، سواءا رأسمالية أو اشـتراكية، إذن فالدولـة يمكن أن تستخدم لوقف تخريب المشاريع الاقتصادية الكبرى. لكن أنظر للطريقة التي تعمل بها آلة الدولة ومن الذي يعطي الأوامر فعلا، وستستطيع أن ترى أنها ليست محايدة.

آلة الدولة ليست فقط الحكومة. انها تنظيم واسع له أفرع عديدة مختلفة - البوليس، الجيش، السلطة القضائية، الإدارة المدنية، الناس الذين يديرون الصناعات الوطنية ومـا إلـى ذلك. الكثير من هؤلاء الذين يعملون في هذه الأفرع المختلفة يأتون من الطبقة العاملة - فهم يعيشون ويتلقون رواتبهم مثل العمال. لكن هؤلاء الناس ليسوا هم الذين يتخذون القرارات.

الجنود العاديون لا يقررون أين ستخاض الحـروب أو إذا كانت الإضرابات سيتم كسرها، كاتب الشباك في مكتـب الضمان الاجتماعي لا يقرر حجم الإعانات التي سيتم دفعها.

آلة الدول كلها ترتكز على مبدأ أن هؤلاء الموجودين على إحدى درجات السلم يطيعون الموجودين على الدرجة الأعلى.

هذا هو بالضرورة الوضع في أقسام آلة الدولة التي تمارس عنف مادي. الجيش، البحرية، القوات الجوية والبوليس.

أول شيء يتعلمه الجنود بعد تجنيدهم - قبل السماح لهم بلمس الأسلحة بفترة طويلة - هو طاعة الأوامر. لهذا فهم يتعلمون عمل تمرنات عبثية. وإذا كانوا سيتبعون أوامر مجنونة على أرض العرض بدون تفكير فيها فمن المقدر أنهم سيطلقون النيران عندما يؤمروا بذلك بدون التفكير فيه هو الآخر.

وأفظع الجرائم في أي جيش هي رفض إطاعة الأوامر- التمرد. وينظر لهذه الإساءة بشكل جاد جدا، حتى أن التمرد في بريطانيا خلال وقت الحرب ما زالت عقوبته الإعدام.

من يعطي الأوامر؟

إذا نظرت إلى سلسلة الأوامر في الجـيش البريطـاني والجيوش الأخرى فهي تسير حسب الرتب (فريق ـ لـواء ـ عميد ـ..الخ) وفي كل مراحل سلسلة الأوامـر تلـك لا ينظر فيها الممثلين المنتخبين أو المستشارين المحليين.فإطاعة مجموعة عساكر للعضو المحلي فـي البرلمـان بـدلا مـن ضابطهم يعد تمردا.

الجيش هو آلة قتل ضخمة.الأشخاص الذين يديرونه ـ ويملكون سلطة ترقية ضباط آخرين لمناصب قيادية ـ هـم الجنرالات.

بالطبع، نظريا الجنرالات مسـئولون أمـام الحكومـة المنتخبة. لكن الضباط مدربون على إطاعة الجنرالات وليس السياسيين. إذا اختار الجنرالات إعطـاء أوامـر لضـباطهم تختلف مع رغبات حكومة منتخبة، لا تستطيع الحكومة ابطال هذه الأوامر.يمكنها فقط محاولة إقنـاع الجنـرالات لتغييـر رأيهم.

وعلى سبيل المثال فقد هدد الجنرالات الـذين يقـودون الجيش البريطاني في ايرلنـدا بالاسـتقالة ورفضـوا تنفيـذ تعليمات الحكومة المنتخبة بأن يحركوا قواتهم شمالا للتعامل مع هذه القوة، ونتيجة لهذا الموقف الذي عاده ما يطلق عليه " تمرد " لم تحظ أيرلندا، بشمالها وجنوبها، ببرلمان موحد في ١٩١٤ وبقيت أمة مقسمة حتى في ١٩٧٤ تكـرر سـيناريو أحداث ١٩١٤ ولكن بشكل مصغر. فقد نظم الجناح اليمينـي الموالي للطائفية في أيرلندا الشمالية إضرابا عاما للصـناعة مستخدما المتاريس لمنع الناس من الذهاب للعمـل، وذلـك احتجاجا على تشكيل حكومة بروتسـتانتية ـ كاثوليكيـة ـ مشتركة في أيرلندا الشمالية للتحرك لإزالة المتاريس وإنهاء الإضراب، غير أن كبار المسئولين في الجيش وقادة الشرطة كانوا لهم رأيا آخر وبالفعل لم تتحرك الشرطة ولا الجنـود لتنفيـذ التعليمـات. وأجبـرت الحكومـة البروتسـتانتية ـ الكاثوليكية المشتركة على الاستقالة، وظهر واضـحا أمـام الكافة من هو صاحب القرار الحقيقي، والإرادة النافذة.

إذا كان من الممكن أن يحدث هذا في ١٩١٤ و ١٩٧٤ مع حكومات الوسط التي كانـت تحـاول أن تشـق طريقـا

لإجراءات معتدلة، فتخيل ماذا يمكن أن يحـدث إذا انتخبـت حكومة اشتراكية صلبة. أي أغلبيـة إصـلاحية جـادة فـي البرلمان ستجبر سريعا على الاختيـار: إمـا التخلـي عـن الإصلاحات من أجل التصالح مع مـن يملكـون الصـناعة ويتحكموا في الوظائف الرئيسية في الدولة، أو تستعد لصراع وجود ضاري مما سيعني في النهاية استخدام نوع من أنواع القوة ضد أصحاب المناصب وذوي النفوذ.

السبب الثالث لكون الإصلاح طريق مسـدود هـو أن الديموقراطية البرلمانية تحتوي على آليات داخلية لمنـع أي حركة ثورية من أن تجد تعبيرا لها داخلها.

يجادل بعض الإصلاحيين إن أفضل طريقة للحصـول على السلطة والتحكم في المناصب الرئيسية في الدولة هو أن يحصل اليسار على أغلبية في البرلمان أولا، غيـر أن هـذه الأطروحة تسقط بسبب أن البرلمانات دائما ما تكون هنـاك فجوة كبيرة بينها وبين الوعي الثوري لدى جمهور السكان.

جمهور الشعب سيثقون أنهم يستطيعون إدارة المجتمـع بنفسهم، فقط عندما يبدأون عمليا في تغيير المجتمـع خـلال الصراع وعندما يقوم ملايين الناس بـاحتلال مصـانعهم أو

يشتركوا في الإضراب عـن العمـل تبـدوا فجـأة أفكـار الاشتراكية الثورية واقعية.

لكن مثل هذا المستوى للصراع لا يمكن المحافظة عليه للأبد إلا إذا أزيحت الطبقة الحاكمة القديمة من السلطة لأنهـا إذا استمرت، ستنتظر حتى تخفت موجة الإضرابات واحتلال المصانع، ثم تستخدم سيطرتها على الجيش والشرطة لإخماد الانتفاضة.

وما أن تبدأ الإضرابات في التراجع حتى يقل تـدريجيا شعور العمال بالوحدة والثقة، وتنهار روحهم المعنوية وحتى أن العناصر الأفضل منهم يتسرب غليها الإحساس بأن تغيير المجتمع كان مجرد حلم، ولهذا السـبب يفضـل أصـحاب الأعمال دائما أن يصوت العمال على قرار الإضـراب فـي منازلهم، وهم يتلقون البرامج التي يبثها التليفزيون والمقالات التي تنشرها الصحف والتي يسيطر عليهما رجال الأعمـال، وليس عندما يكونوا متحديين في لقاءات جماعيـة وقـادرين على سماع أطروحات غيرهم من العمال.

ولهذا أيضا تحتوي القوانين المضادة للاتحادات، دائمـا تقريبا على جملة تجبر العمال على إنهاء الإضرابات بينمـا

يتم أخذ الأصوات بشكل سري بالبريد، مثل هذه الجمل تدعي بدقة " فترات تهدئة "، وهي مصممة لصب ماء بارد على ثقة وتضامن العمال.

النظام الانتخابي البرلماني يحتوي فـي داخلـه علـى اقتراعات سرية وفترات تهدئة فعلى سبيل المثال، إذا قـدمت إحدى الحكومات استقالتها بسـبب إضـراب ضـخم، فمـن المحتمل أن تقول: " حسنا " انتظروا ثلاثـة أسـابيع حتـى نستطيع إجراء انتخابات عامة تستطيع حل المشكلة ديمقراطيا وتأمل في أثناء ذلك أن ينتهي الإضراب، وعنـدها سـتخفت وحدة وثقة العمال بأنفسهم، وسيتمكن أصحاب الأعمال مـن وضع المناضلين في قائمة سوداء، في حين ستعود الصحافة الرأسمالية والتليفزيون للعمل بشكل طبيعـي مـرة أخـرى مرددين الأفكار الموالية للحكومة، علاوة على هذا فسـيتمكن البوليس من القبض على " صانعي المتاعب "ز

وعندئذ تحدث الانتخابات، ولن يعكس التصويت بطبيعة الحال أعلى نقطة وصل إليها العمال في الصـراع الطبقـي، ولكنه سيعكس النقطة الدنيا بعد إنهاء الإضراب.

في فرنسا سنة ١٩٦٨، لجأت حكومة الجنرال ديجـول إلى ذات الطريقة بالضبط، فقد طلبـت الأحـزاب العماليـة الإصلاحية والنقابات من العمال إنهاء إضراباتهم، ليتم إجراء انتخابات نجاح خلالها ديجول في الاحتفاظ بالسلطة.

حاول رئيس الوزراء البريطاني إدوارد هيث اللجوء إلى نفس الخدعة عندما واجه إضراب ضـخم ونـاجح لعمـال المناجم في ١٩٧٤ ولكن العمال لم ينخـدعوا هـذه المـرة، وواصلوا إضرابهم وخسر هيث الانتخابات.

الخلاصة: إذا انتظر العمال الانتخابات لتقرير موقـف من القضايا الرئيسية في الصراع الطبقي، فلن يصـلوا أبـدا لهذه النقطة العالية من الوعي والثقة في النفس التي تتسـرب إليهم أثناء رفعهم راية الاحتجاج داخل مواقع العمل.

دولة العمال:

حدد كل من ماركس في كراسته ٠ الحرب الأهلية فـي فرنسا) و لينين في (الدولة والثورة) رؤية مختلفة تمامـا لكيف يمكن أن تنتصر الاشتراكية، لم يتوصل أيا منهم إلـى هذه الأفكار عبر التفكير المجرد فكلا منهم طـور وجهـات نظره بالانخراط في أحداث كبرى في تاريخ الصراع الطبقي

- رأى ماركس كوميونة باريس، ولينين السوفيتات الروسية (مجالس العمال) في ١٩٠٥، ١٩١٧.

لكن ماركس ولينين أصرا على أن الطبقـة العاملـة لا يمكن أن تبدأ في بناء الاشتراكية إلا بعد أن تكـون أولا قـد قامت بتدمير آلة الدولة القديمة المرتكزة على سلاسل الأوامر البيروقراطية، وتكون ثانيا قد خلقت دولة جديدة على مبادئ جديدة تماما، وأكد لينين كيف يجب أن تختلف هـذه الدولـة بشكل كامل عن القديمة بأن أطلق عليها دولة كوميونة، دولة تكف عن أن تكون دولة؟

قال ماركس ولينين أن هناك احتياج لدولة جديدة لكـي تستطيع الطبقة العاملة أن تفرض هيمنتها وأوامرها على بقايا الطبقات الحاكمة والمتوسطة القديمة، هـذه الدولـة هـي " ديكتاتورية العمال "، وبواسطتها تحدد الطبقة العاملة أن كيف يجب أن يدار المجتمع، وعليها أيضا لكي تستطيع أن تـدافع عن ثورتها ضد هجمات طبقتها الحاكمـة وكـذا الطبقـات الرأسمالية في شتى أنحاء العالم أن تشكل قواتهـا المسـلحة كشكل من أشكال ضبط أمن المجتمع، وأن يكون لديها محاكم وحتى سجون.

ولكي يضمن العمال أن يخضع هذا الجيش الجديد والشرطة أو النظام القانوني لسيطرتهم، ولا ينقلبوا ضد مصالحهم، فلا بد من الانطلاق من مبادئ مختلفة تماما عن تلك التي كانوا يعملون وفقًا لها في ظل الدولة الرأسمالية، يجب أن تكون هذه المؤسسات أدوات في يد العمال لإرشاد بقية المجتمع، وليس ديكتاتورية موجهة ضد أغلبية الطبقة العاملة.

<u>وهذه هي الاختلافات الرئيسية بين الدولتين العمالية والرأسمالية:</u>

الدولة الرأسمالية تخدم مصالح أقلية صغيرة من المجتمع بينما دولة العمال يجب أن تخدم مصالح الأغلبية الساحقة، القوة في الدولة الرأسمالية تمارسها أقلية مأجورة، مقطوعين عن باقي المجتمع ومدربين على إطاعة تعليمات ضباط الطبقة العليا، لكن في دولة العمال، سيكون هناك احتياج للقوة فقط حتى تستطيع الأغلبية حماية نفسها ضد التصرفات التي تقوم بها بقايا الطبقات المحظوظة القديمة ضد المجتمع. فأعمال البوليس والجندية في دولة العمال يمكن أن يقوم بها العمال العاديين، الذين يختلطوا بحرية مع

زملائهم العمال، يتشاركوا نفس الأفكـار ويعيشـون نفـس الحياة، ولضمان إلا تتطور مجموعـات الجنـود والشـرطة بانفصال عن جمهور العمـال، يجـب أن يكـون الجنـود والشرطة عمال مصنع ومكتب عاديين يقومون بهذا بالـدور بالتناوب.

وبدلاً من أن يدير القوات المسلحة والشرطة مجموعـة صغيرة من الضباط ستتم إدارتها عن طريق ممثلـين مـن جمهور العمال " منتخبين مباشرة "ز الممثلون البرلمانيون في الدولـة الرأسـمالية يمـررون قـوانين، لكـن يتركـون للبيروقراطيين المتفرغين، رؤساء الشرطة والقضاة تطبيقهـا هذا يعني أن أعضاء البرلمان والمستشـارين يمكـن دائمـا الاختباء وراء مليون عذر عندما لا يتم تطبيـق وعـودهم. ممثلين العمال في دولة العمال سيكون عليهم الانتبـاه إلـى وضع قوانينهم موضع التنفيذ، هم وليست نخبة مـن صـفوة البيروقراطيين، سيكون عليهم التفسير لعمال الخدمة المدنية، الجيش وما إلى ذلك، كيف يجب أن تنجز الأشياء وسـيكون على ممثلي العمال المنتخبين تفسير القوانين في المحاكم.

الممثلون البرلمانيون في الدولة الرأسمالية ينفصلوا عن الذين انتخبوهم بسبب الرواتب الكبيرة في الدولة، في حين أن ممثلي العمال لن يحصلوا على أكثر من متوسط أجر العامل. نفس الشيء ينطبق على هؤلاء الذين يعملون وقت كامل في مناصب رئيسية مطبقين قرارات ممثلي العمـال (تسـاوي العاملين في الخدمة المدنية في هذه الأيام).

ممثلو العمال وكل هؤلاء المختصين بتطبيق قـرارات العمال لن يكونوا مثل أعضاء البرلمان محصنين ضد العزل من المناصب لمدة خمس سنوات (أو مدى الحياة في حالـة المسئولين في الخدمة المدنية) ولكنهم سيكونون عرضة على الأقل لانتخابات سنوية ولاستدعاء فوري من الذين انتخبوهم إذا لم ينفذوا رغباتهم.

الممثلون البرلمانيون ينتخبوا عن طريق كل الناس الذين يعيشون في منطقة معينة - طبقة عليا، طبقة متوسطة، طبقة عاملة، مـلاك المسـاكن فـي الأحيـاء الحقيـرة وأيضـا المستأجرين، سماسرة الأسهم مثلهم مثل العمال. فـي دولـة العمال الانتخاب سيكون لمن يعملون فقط، وسيأتي التصويت فقط بعد مناقشات مفتوحة حول كافة القضايا ومن أجل تحقيق

ذلك فإن مجالس العمال التي ترتكز على المصانع، المنـاجم، المرافئ، المكاتب الكبيرة سـتكون العمـد الفقـري للدولـة العمالية، في حين سيكون لمجموعات مثل ربـات البيـوت، المحالين على المعاش، طلاب المداس، والطلبـة، الممثلـين الخاصين بهم.

بهذه الطريقة كل قسم من الطبقة العاملـة سـيكون لـه ممثله الخاص، ويكون قادرا على الحكم مباشرة إذا كان هـو أو هي يتبعون مصلحتهم أم لا بهذه الطـرق، لا يمكـن أن تصبح الدولة الجديدة سلطة منفصلة عن أغلبية الطبقة العاملة ضدها كما كانت في دولة الكتلة الشرقية التي أطلقت علـى نفسها " الشيوعية ".

في نفس الوقت، نظام مجلس العمال يوفر وسيلة يمكـن من خلالها للعمال تنسيق جهودهم في إدارة الصناعة طبقـا لخطة قومية مقررة ديمقراطيا، ولا ينتهي بهم الأمـر إلـى إدارة مصانعهم في منافسة مع بعضهم البعض. من السـهل رؤية كيف ستسمح تكنولوجيا الكومبيوتر الحديثة بإعطاء كل العمال معلومات حول الخيارات الاقتصادية المختلفة المتاحة أمام المجتمع ولتوجيه ممثليهم لاختيار ما تظنه أغلبية العمال

أفضل مجموعة خيارات، على سبيل المثال هل تنفق الموارد على تصنيع طائرات كونكورد أم على نظام مواصلات عامة رخيص ويمكن الاعتماد عليه، هل نبني قنابل نووية أم آلات حديثة لعلاج مرض الكلى وما إلى ذلك.

ذبول الدولة:

لأن سلطة الدولة لن تكون شيئا منفصلا عن جمـاهير العمال فستكون مسألة القمع أقل بكثير مما هو الوضـع فـي ظل الرأسمالية وباستسلام بقايا المجتمع القديم التي كان هـذا القمع موجها ضدها لنجاح الثورة سيكون هناك احتياج أقـل وأقل للقمع، حتى لا يحتاج العمال في النهاية لاقتطاع وقـت من العمل لصف الشرطة والجيش.

هذا ما عناه ماركس ولينين عندما قالوا أن الدولة ستذبل وبدلا من ممارسة القمع ضد الناس ستصبح الدولة مجرد آلية في يد مجالس العمال لتقرير كيفية إنتاج وتوزيع المنتجات.

لقد ظهرت مجالس العمال للوجود بشكل أو بآخر كلمـا وصل الصراع بين الطبقات في ظل الرأسمالية إلى مسـتوى عالي فعلا فكانت " السوفيت " هي الكلمة التـي اسـتخدمها الروس لمجالس العمال ١٩٠٥ و ١٩١٧ وفـي ١٩١٨ فـي

ألمانيا كانت مجالس العمال باختصار القوة الوحيدة في البلاد، وفي أسبانيا في ١٩٣٦ كانت الإضرابات العمالية المختلفة والنقابات موحدة في " لجان الميليشيات " التي إدارة المحليات وكانت شبيهة جدا بمجالس العمال. وفي المجر ١٩٥٦ انتخب العمال مجالس لتدير المصانع والمحليات أثناء محاربتهم القوات الروسية، وفي تشيلي في ١٩٧٢ و ١٩٧٣ بدأ العمال في تنظيم كوردونات وهي لجان عمالية أوقفت عمال المصانع الكبيرة.

يبدأ مجالس العمال الحياة كهيئة يستخدمها العمال لتنسيق صراعهم ضد الرأسمالية ويمكن أن يبدأ بوظائف بسيطة مثل جمع أموال للإضرابات لكن لأن هذه الهيئات ترتكز على الانتخاب المباشر من العمال، ويكون ممثلي العمال عرضة للاستدعاء يمكنهم في أعلى درجات الصراع أن ينسقوا جهود كل الطبقة العاملة.. يمكنهم وضع أساس سلطة العمال.

الفصل التاسع

كيف يصبح العمال ثوريين؟

من أجل تغيير المجتمع، توجهت أنظار معظم العمـال البريطانيون خلال هذا القرن فـي اتجـاه حـزب العمـال والبرلمان. بينما أيدت أقلية كبيرة الأفكار الرجعيـة لحـزب المحافظين وبقى مؤيدو الاشتراكية الثورية بشكل عام قليلـي العدد.

ولم تكن لا مبالاة العمال أو حتى معارضتهم للأفكـار الاشتراكية الثورية مفاجأة على الإطلاق، فقد نشأنا كلنا فـي مجتمع رأسمالي يسلم بأن الكل أنانيون، وتخبر فيه الصحف والتليفزيون الشعب باستمرار أن هناك فقط أقلية محدودة هي التي تملك القدرة لاتخاذ القرارات الرئيسية فـي الصـناعة والدولة؛ مجتمع يتعلم فيه جمهور العمال – فـي أول يـوم يلتحقون فيه بالمدرسة إطاعة الأوامر – التي يعطيها لهـم " الأكبر والأفضل منهم ".

كما أوضح ماركس فإن " الأفكار الحاكمة هـي أفكـار الطبقة الحاكمة " وأعداد واسعة من العمال تقبل هذه الأفكار.

لكمن بالرغم من هذا، فإن تـاريخ الرأسـمالية يشـير باستمرار إلى أ، الحركات الثورية للطبقـة العاملـة هـزت أركان دولة بعد أخرى. فرنسا فـي ١٨٧١، روسـيا فـي ١٩١٧، ألمانيا والمجر فـي ١٩١٩؛ إيطاليـا فـي ١٩٢٠؛ أسبانيا وفرنسا في ١٩٣٦؛ المجر في ١٩٥٦، فرنسـا فـي ١٩٦٨، شيلي في ١٩٧٢؛ البرتغال في ١٩٧٥؛ إيران فـي ١٩٧٩.

ويمكن تفسير هذه الاضطرابات في طبيعة الرأسـمالية نفسها، فهي نظام ينتج أزمات بشكل مستمر، وعلى المـدى الطويل لا يمكن للرأسمالية أن توفر التوظيـف كامـل، ولا يمكنها توفير الرخاء للجميع، ولا يمكنها ضـمان اسـتقرار مستويات معيشتنا في ظلا لازمة التي ستنتجها غـدا. لكـن العمال خلال فترات رخاء الرأسمالية يبدءون في توقع هـذه الأشياء.

لذلك على سبيل المثال، في الخمسينات وبداية الستينات بدأ العمال في بريطانيا يتوقعون توظيف كامل دائـم، دولـة رفاه، وتحسينات تدريجية ولكن حقيقة في مستويات المعيشة. ولكن في المقابل، على مر العقـدين الماضـيين، سـمحت

حكومات متتالية بزيادة أعداد العاطلين عن العمـل إلـى ٤ مليون، وانتهت دولة الرفاهيـة أو كـادت، وتـم تخفـيض مستويات المعيشة مرات ومرات.

ولأن وسائل الأعلام البرجوازية قد هيأتنا لقبول أفكـار رأسمالية عديدة، فنتقبل في أحيان عديدة الأسباب التي تطلقها الحكومة لتبرير هجماتها على حقوقنا، ولكن في النهاية يصل العمال لنقطة يجدون فيها أنهم لا يستطيعون التحمل أكثر من هذا، فجأة، غالبا عندما لا يتوقـع أحـد، يشـتعل غضـبهم ويتحركون ضد أصحاب العمل أو الحكومة، ربما يكون ذلك عن طريق القيام بإضراب أو تنظيم مظاهرة.

عندما يحدث هذا، يبدأ العمال في فعل أشياء تتعـارض مع كل الأفكار الرأسمالية التي قبلوها سـابقا، يبـدأون فـي التصرف بتماسك وتعاضد مع بعضهم البعض، كطبقة، فـي مواجهة ممثلي الطبقة الرأسمالية.

وحينئذ تبدأ الأفكار الاشتراكية الثورية، التـي اعتـادوا رفضها، ملاءمة، مع ما يفعلونه، بعض العمال على الأقـل يبدأ في أخذ هذه الأفكار بجدية - بافتراض أن الوصول لهذه الأفكار سهل.

حدود حدوث ذلك تتسع وتضيق مع نطـاق الصـراع، وليس مع الأفكار الموجودة في رؤوس العمال منذ البدايـة، فالرأسمالية تجبرهم على دخول صراع رغم أنهم قد يبـدأون بأفكار موالية لها، ثم يجعلهم الصراع بعد ذلك يتشككون في هذه الأفكار.

تعتمد قوة الرأسمالي على محورين أساسيين: التحكم في وسائل الإنتاج والتحكم في الدولة. والحركة الثورية الحقيقية تبدأ بين جمهور العمال الضخم عندما تقـودهم الصـراعات حول مصالحهم الاقتصادية الحالية إلى الاصطدام مع دعامتي الحكم الرأسمالي.

فلنأخذ على سبيل المثال مجموعة مـن العمـال كـانوا يعملون في نفس المصنع لسنوات، ويعتمـد نظـام حيـاتهم الطبيعي الممل كله على وظائفهم هناك، وفي أحد الأيام يعلن صاحب العمل عنه سيغلق المصنع، حتـى الـذين صـوتوا للمحافظين بين العمال يصيبهم الهلع ويرغبون في فعل شيء. وفي غمار بأسهم يقررون أن الطريقة الوحيدة للاستمرار في المعيشة بنفس نمط الحياة الذي عملتهم الرأسمالية توقعه، هو

احتلال المصنع - أو تحدي سيطرة صاحب العمـل علـى وسائل الإنتاج.

وهكذا ربما يجدون أنفسهم بسرعة يقفون أيضـا ضـد الدولة، عندما يطلب صاحب العمل البوليس ليعيد له سيطرته على ممتلكاته، وحتى يكون لهم أي فرصـة فـي الاحتفـاظ بوظائفهم، يصبح على العمال الآن أن يواجهوا البوليس، آلة الدولة، مثلها مثل صاحب العمل.

لذلك فالرأسمالية نفسها تخلق شروط التصادم الطبقـي التي تفتح عقول العمال لأفكار معارضة للأفكار التي لقنهـا لهم النظام، هذا يفسر لماذا كان تاريخ الرأسـمالية موسـوما باندفاعات دورية للشعور الثوري لدى ملايين العمال، حتـى إذا كان العمال معظم الوقت يقبلون الأفكار التي يمدهم بهـا النظام.

نقطة أخيرة. إن أحد أهم الأشياء التي تمنع العمال مـن تأييد الأفكار الثورية هو عدم ثقتهم من تضامن عمال آخرين معهم إذا تحركوا للمطالبة بحقوقهم، ولكن عندما يكتشـفون إن عمالا آخرين يتحركون بالفعل، يفقدون تـراخيهم فجـأة. بنفس الطريقة فإن جماهير العمال التي تعتقد إنها غير قادرة

على إدارة المجتمع، تتعلم فجأة إن العكس صحيح عندما تكتشف عبر الصراعات الضخمة ضد المجتمع القائم أنهم يتولون إدارة جزء هام منه وبكفاءة.

وبسبب هذا، ما إن تبدأ الحركات الثورية حتى تتضاعف قوتها وتأثيرها بسرعة مذهلة.

الفصل العاشر

الحزب الاشتراكي الثوري

الفرضية الأساسية للماركسية هي أن تطور الرأسـمالية يدفع العمال للتمرد ضد النظام.

عندما تندلع مثل هذه التمردات - سواء فـي صـورة مظاهرة حاشدة أو تمرد مسلح أو حتى إضـراب كبيـر - يتحول وعي الطبقة العاملة بطريقة مذهلـة. فكـل الطاقـة الذهنية التي بددها العمال سابقا في التسلية من سباق الخيول إلى مشاهدة التليفزيون يتم توجيهها فجأة إلى محاولة التعامل مع مشكلة كيف يمكن تغيير المجتمع، ملايين الناس محاولـة التعامل مع مشكلة كيف يمكن تغيير المجتمع، ملايين النـاس الذين يشتبكون مع مثل هذه الإشكاليات يبدعون حلولاً بارعة ومدهشة، بينما يصاب الثوريين المنظمين من ذوي التـاريخ مثلهم مثل الطبقة الحاكمة بالحيرة والدهشة من خضـم هـذا التحول الكبير في مجرى الأحداث.

لذلك على سبيل المثال، في الثـورة الروسـية الأولـى ١٩٠٥ نما شكل جديد لتنظيم العمال، السوفييتات (مجـالس العمال) من لجنة الإضراب التي أقيمـت خـلال إضـراب

طباعة، في البداية تعامل الحزب البلشفي – الأكثر نضـالية بين الاشتراكيين الثوريين – مع السوفييتات بعدم ثقـة: لـم يصدقوا أنه من الممكن لجمهور العمال غير المسيسين سابقا أن يخلقوا أداة ثورية حقيقية.

مثل هذه التجارب موجودة في العديد من الإضـرابات: حين يفاجأ العمال المسيسون بأن العمـال الـذين تجـاهلوا نصائحهم ودعايتهم طويلا بدأوا في تنظـيم عمـل نضـالي بأنفسهم.

هذه العفوية جوهرية. لكن من الخطأ الخروج باستنتاج – مثل الفوضويين – أنه بسب التلقائية لا توجد حاجة لحزب ثوري.

في وضع ثوري يغير الكثير من العمال أفكارهم بسرعة شديدة جدا لكنهم لا يغيرون كل أفكارهم مرة واحدة. داخـل كل إضراب، كل مظاهرة، كل انتفاضة مسلحة، يوجد دائمـا نقاشات مستمرة. قليل من العمال سيرون بالفعل ما قاموا به بمثابة مقدمة لاستيلاء الطبقة العاملـة علـى السـلطة فـي المجتمع. آخرون سيكونون مترددين وضد القيام بأي عمـل على الإطلاق، لأن هذا يشوش " النظام الطبيعي للأشـياء ".

في المنتصف توجد جماهير العمال الذين تجذبهم أولا مجموعة تلو الأخرى من الأطروحات.

على أحد جانبي الميزان ستلقى الطبقة الحاكمة الموجودة كل ثقل آلة دعاية الصحف، لتدين أفعال العمال، وستلقي أيضا قواتها في كسر الإضراب، سواء الشرطة، الجيش أو منظمات الجناح اليميني.

وعلى جانب العمال يجب أن توجد منظمة من الاشتراكيين الذين يمكنهم استخلاص دروس الصراع الطبقي السابقة، ويمكنهم وضع الأطروحات والأفكار حول الاشتراكية فوق الميزان. يجب أن توجد منظمة يمكنها تجميع الفهم المتنامي للعمال في الصراع حتى يمكنهم العمل معا لتغيير المجتمع.

وهذا الحزب الاشتراكي الثوري يحتاج أن يكون موجودا قبل بدء الصراع، فالمنظمة لا تولد تلقائيا، الحزب يبني من خلال التفاعل المستمر للأفكار الاشتراكية وخبرة الصراع الطبقي لأن مجرد فهم المجتمع ليس كافيا، فقط بتطبيق هذه الأفكار في الصراع الطبقي اليومي: في الإضرابات، المظاهرات، الحملات، هنا سيصبح العمال

مدركين لقوتهم وقدرتهم على تغير الأشياء ويكتسبون الثقـة لفعل ذلك.

في نقاط معينة يمكن أن يكون تدخل الحزب الاشتراكي حاسما. يمكن أن يميل الميزان تجاه التغيير تجاه انتقال ثوري للسلطة في اتجاه العمال، تجاه المجتمع الاشتراكي.

حزب .. من أي نوع؟

يحتاج الحزب الاشتراكي الثوري أن يكون ديمقراطيـا. ولإنجاز دوره، يجب أن يكون الحزب متصـلا بالصـراع الطبقي باستمرار وهذا يعني التواجد مع أعضائه ومؤيديه في أماكن العمل حيث يجري هذا الصراع. يحتاج أيضا أن يكون ديمقراطيا لأن علي قيادته أن تعكس دائما الخبرة الجماعيـة للصراع.

في نفس الوقت هذه الديمقراطية ليسـت مجـرد نظـام للانتخاب لكنها جدل دائم داخل الحـزب – تفاعـل مسـتمر للأفكار الاشتراكية التي يقوم عليها الحزب مع خبرة الصراع الطبقي.

لكن الحزب الاشتراكي الثوري يجب أيضـا أن يكـون مركزيا . لأنه حزب نشط وليس جماعة للنقاش. فهو يحتـاج أن يكون قادرا علي التدخل بشكل جمـاعي فـي الصـراع الطبقي، وأن يستجيب بسرعة للأحداث، لذلك يجب أن يمتلك قيادة قادرة علي اتخاذ قرارات بشكل يومي باسم الحزب.

إذا أمرت الحكومة علي سبيل المثال باعتقال المضربين فعلى الحزب أن يتحرك مباشـرة دون الحاجـة إلـى عقـد مؤتمرات لإتخاذ القرارات بشكل ديمقراطي، ويتم آخذ القرار بشكل مركزي ويتم التحرك علي أساسه. تأتي الديمقراطيـة بعد ذلك عندما يناقش الحزب إذا ما كان القرار صحيحاً أم لا ومن الممكن أن يغير قيادة الحزب إذا كانت غير منسجمة مع احتياجات النضال.

يحتاج الحزب الاشتراكي الثوري أن يحافظ علي توازن دقيق بين الديمقراطية والمركزية وجوهر المسـألة هـو أن الحزب ليس موجودا من أجل ذاته ولكن كوسـيلة لتحقيـق التغيير الثوري نحو الاشتراكية وهذا يحدث فقط من خـلال الصراع الطبقي.

إذا فالحزب عليه دائما أن يكيف أوضاعه مع النضال. عندما يكون مستوى النضال منخفضا وعدد العمال المؤمنين بإمكانية التغيير الثوري قليلون سيكون الحزب صغيرا وعليه أن يقبل ذلك، فليس هناك معنى من أن يخفف من أفكاره السياسية من أجل مضاعفة عضويته. ولكن عندما يتصاعد النضال تغير أعداد كبيرة من العمال الذين اكتشفوا قدرتهم علي التغيير عبر النضال أفكارهم، وفي هذه الحالة علي الحزب أن يكون قادراً علي فتح أبوابه وإلا سيصبح مهمشا.

لا يمكن للحزب أن يستبدل نفسه بالطبقة العاملة عليه أن يكون جزءا من الصراع الطبقي محاولا دائما توحيد أكثر العمال وعيا لخلق قيادة في النضال. ولا يجب علي الحزب أن يملي القرارات علي العمال. أو أن يعتبر نفسه قيادة لها، بل عليه أن يكسب هذا الموقع واثبات صحة الأفكار الاشتراكية في الممارسة والانخراط في كل التحركات التي تبدأ من إضراب صغير الي الثورة نفسها.

يرى البعض الحزب الاشتراكي الثوري وكأنه شكل جنيني من الاشتراكية وهذه فكرة خاطئة تماما، فالاشتراكية

لن تأتي إلا عندما تسيطر الطبقة العاملة نفسها علي وسـائل انتاج الثروة وتستخدمها لتغيير المجتمع.

لا يمكنك بناء جزيرة اشتراكية في بحر من الرأسـمالية ومحاولات مجموعات صغيرة من الاشـتراكيين أن يعزلـوا أنفسهم ويعيشوا علي أساس أفكار اشتراكية دائما ما تنتهـي بالفشل الذريع علي المدى الطويـل ، فمـن جانـب تبقـى الضغوط الاقتصادية والايديولوجية. ومن جانب آخر عنـدما يعزل هؤلاء أنفسهم عن الرأسمالية فهم يعزلون أنفسهم أيضا عن القوة الوحيدة القادرة علي تحقيق الاشتراكية وهي الطبقة العاملة.

يناضل الاشتراكيون بالطبع ضد الآثار السيئة للرأسمالية كل يوم.. ضد العنصرية واضطهاد المرأة والاستغلال وكـل أشكال الوحشية ولكننا نستطيع فعل ذلك فقط من خلال أخـذ قوة الطبقة العاملة كأساس لنضالنا.

الفصل الحادي عشر
الإمبريالية والتحرر الوطني

خلال تاريخ الرأسمالية، كانت الطبقة الحاكمة دائما مـا تبحث عن مصدر إضافي للثروة:

الاستيلاء على الثروة التي تنتجها الدول الأخرى.

جاء نمو الأشكال الأولى للرأسمالية مع نهاية العصـور الوسطى مصاحبا لاستيلاء الدول الغربية على إمبراطوريات استعمارية كبيرة مثل إمبراطوريات إسبانيا والبرتغال، هولندا وفرنسا، وبالطبع بريطانيا العظمى.

لقد تم في تلك الأثناء ضخّ الثروة إلى أيـدي الطبقـات الحاكمة في أوروبا الغربية بينما تم تدمير مجتمعات كاملة لما يطلق عليه الآن بـ "العالم الثالـث" (دول أفريقيـا، آسـيا، وأمريكا الجنوبية).

وبالتالي، فلقد أدى "اكتشاف" الأوروبيين لأمريكـا فـي القرن السادس عشر إلى تدفق واسع النطـاق للـذهب فـي أوروبا. أما الوجه الآخر لهذه العملة فقد تمثل فـي تـدمير مجتمعات كاملة واستعباد مجتمعات أخرى.

فعلى سبيل المثال، في هاييتي، حيث أقام كولومبس أول مستوطنة، تم إبادة الهنود الـ "هاراواك" الذين كانوا يعيشون في موطنهم (تم إبادة ما يقرب من نصف مليون فرد) وذلـك على مدار جيلين من البشر.

وفي المكسيك، انخفض عدد السكان الهنـود مـن ٢٠ مليون نسمة في عام ١٥٢٠ إلى ٢ مليون في عام ١٦٠٧.

أما السكان الهنود الذين عاشوا في جزر الهند الغربيـة وأجزاء أخرى من القارة فقد تم استبدالهم بالعبيد الذين أُسروا في أفريقيا ونُقلوا عبر المحيط الأطلنطي تحت ظروف سيئة للغاية.

هناك ما يقدر بـ ١٥ مليون عبد هم كل من بقوا أحيـاء بعد عبور الأطلنطي بينما مات ٩ مليون خلال الرحلة.

وتم نقل حوالي نصف العبيد على سفن بريطانية، وهذا يعتبر أحد أسباب كون الرأسمالية البريطانية الأولى في توسع الصناعة.

لقد وفرت الثروة التي أتت من تجارة العبيد سبل تمويل الصناعة.

وكما تعبر مقولة قديمة بأن " حوائط مدينـة بريسـتول مصنوعة من دم الزنوج"، ينطبق هذا القـول علـى مـوانئ أخرى في إنجلترا.

وكما يقول كارل ماركس:

"إن العبودية المقنّعة للعامل الأجير في أوروبا تطلبـت كقاعدة لها عبودية خالصة تماما وسهلة المنال فـي العـالم الجديد."

لقد تمت تجارة العبيد بطرق النهب الخالصة، مثلما غزا البريطانيون الهند.

كانت البنغال متقدمة جدا حتـى أن الـزوار الإنجليـز الأوائل ذهلوا من روعة حضارتها.

ولكن هذه الثروة لم تبقى طويلا في البنغال؛ وكما كتب اللورد ماكولاي في سيرته الذاتية عن الغازي كلايف:

"تم التخلص من كثرة السكان بتقديمهم كفريسة.

ولذلك، فقد تم مراكمة ثروات هائلة في كالكاتا بينما كان ٣٠ مليون من البشر يعيشون في منتهى البؤس.

لقد اعتادوا الحياة تحت نير الطغيان ولكنه لم يكن أبـدا طغيانا مثل هذا."

من هذه النقطة فصاعدا، أصبحت البنغال مشهورة ليس بثروتها ، ولكن بالفقر المدقع الذي كان يحصد كل عدة سنوات الملايين الذين ماتوا من الجوع بسبب المجاعات، وهو فقر مستمر حتى وقتنا هذا.

في تلك الأثناء في ستينيات القرن السابع عشر، وفي وقت لم يتعدى إجمالي استثمار رأس المال في إنجلترا أكثر من ٦-٧ مليون جنيه إسترليني، كانت الجزية السنوية لإنجلترا من الهند تبلغ ٢ مليون جنيه إسترليني.

وكانت نفس هذه المراحل تحدث في أقدم مستعمرة إنجليزية، وهي أيرلندا.

ففي أثناء المجاعة الكبيرة التي حدثت في أواخر أربعينيات القرن الثامن عشر عندما انخفض سكان أيرلندا إلى النصف بسبب الموت جوعا والهجرة، تم إرسال كميات من القمح كانت تزيد حتى عن إطعام السكان الذين يموتون جوعا من إنجلترا إلى ملاك الأراضي الإنجليز كإيجار.

واليوم، فمن المعتاد تقسيم العالم إلى دول متقدمة وأخرى متخلفة.

والانطباع السائد هو أن الدول "المتخلفة" كانت تسير في نفس اتجاه الدول المتقدمة لمئات السنين ولكن بإيقاع بطيء.

ولكن واقع الأمر هو أن أحد أسـباب "تطـور" الـدول الغربية يكمن في أن الدول الأخرى قد نُهبت ثرواتها ودفعت دفعاً نحو التخلف.

إن الكثير من الدول أفقر الآن عما كانت عليه منذ ٣٠٠ سنة مضت.

وكما أشار مايكل بارات براون، "إن معدل الثروة للفرد في الدول المتخلفة حاليا، وليس فقط في الهند ولكن أيضا في الصين وأمريكا اللاتينية وأفريقيا، كان أعلى من مثيلـه فـي أوروبا القرن السابع عشر، ثم انخفض بينما نمت الثروة في أوروبا الغربية." لقد أتاح امتلاك بريطانيا للإمبراطوريـة أن تتطور لتصبح فيما بعد القوة الصناعية الأولى في العالم.

كانت بريطانيا في وضع يمكنهـا مـن منـع الـدول الرأسمالية الأخرى من وضع أيديهم علـى المـواد الخـام بالإضافة إلى أسواق ومناطق استثمارية مربحة داخل ثلـث العالم الذي احتلته.

ولكن بنمو قوى صناعية أخرى مثل ألمانيـا واليابـان والولايات المتحدة، فقد أرادت هذه الدول أن يحصلوا علـى تلك المميزات لأنفسهم.

ولذلك، فلقد قاموا ببناء إمبراطوريات منافسـة أو مـا يمكن أن يطلق عليه بـ "مناطق نفوذ." وبسـبب مواجهتهـا لأزمات اقتصادية، فقد حاولت كل مـن القـوى الرأسـمالية الرئيسية حل مشاكلها عن طريق الاعتداء على مناطق نفـوذ منافسيها.

وفي النهاية، أدت الإمبريالية إلى حرب عالمية.

أنتج هذا بدوره تغيرات ضخمة داخل النظـام الـداخلي للرأسمالية، وأصبحت أداة شن الحرب وهي الدولـة أكثـر أهمية.

فلقد عملت الدولة بقرب أكثر كثيرا عن ذي قبـل مـع الشركات العملاقة لإعادة تنظيم الصناعة بهـدف المنافسـة الخارجية والحرب.

بمعنى آخر، أصبحت الرأسمالية هي رأسمالية احتكـار الدولة.

كما عني تطور الإمبريالية أن الرأسماليين لم يستغلوا فقط الطبقة العاملة في بلادهم، ولكنهم قاموا أيضا بالسيطرة المادية الملموسة على دول أخرى واستغلوا سكانها.

وبالنسبة لمعظم الطبقات المضطهدة في الدول المستَعمرة، كان هذا يعني أنهم كانوا مستغَلين من قبل المستعمرين الأجانب بالإضافة إلى استغلال طبقتهم الحاكمة، أي كان استغلالهم مضاعفا.

وفي الدول المستعمِرة، عانت بعض أقسام الطبقات الحاكمة أيضا.

لقد شاهدوا كيف أن الكثير من فرصهم لاستغلال السكان المحليين كانت تُسرق منهم من قبل الإمبريالية.

وبنفس الطريقة، عانت أيضا الطبقات الوسطى في المستعمرات والتي كانت ترغب في رؤية توسع سريع للصناعة التي تدار محليا مما كان سيخدمهم في خلق فرص مستقبلية جديدة.

لقد شهدت الـ ٦٠ سنة الأخيرة نهوض كل هذه الطبقات المتنوعة في المستعمرات والدول المستعمِرة سابقا ضد تأثيرات الإمبريالية.

فلقد تطورت بعض الحركات التي حاولت توحيـد كـل السكان ضد حكم الإمبريالية الأجنبية؛ وتضـمنت مطـالبهم الآتي:

" طرد قوات الاحتلال الأجنبية الإمبريالية.

" توحيد البلاد تحت راية حكومة وطنية واحـدة وذلـك لتجنب تقسيمه بين قوى إمبريالية متعددة.

" إعادة توطيد مكانة اللغة الأصلية في الحيـاة اليوميـة وذلك لمقاومة اللغات التي فرضها الحكام الأجانب.

" استخدام الثروة التي تنتجها البلاد في توسيع الصناعة المحلية من أجل "تطوير" و "تحديث" البلاد.

تلك كانت مطالب حركات ثورية متعاقبة في بلاد مثـل الصـين (١٩١٢، ١٩٢٣-١٩٢٧، وفـي ١٩٤٥-١٩٤٨)؛ إيـران (فـي ١٩٠٥-١٩١٢، ١٩١٧-١٩٢١، و١٩٤١-١٩٥٣)؛ تركيا (بعد الحرب العالمية الأولى)؛ جـزر الهنـد الغربية (من ١٩٢٠ وما بعد ذلـك)؛ الهنـد (فـي سـنوات ١٩٢٠-١٩٤٨)، أفريقيا (بعد ١٩٤٥)؛ فيتنام (حتى هزيمـة الأمريكيين في ١٩٧٥)؛ وحتى الآن في جنوب أفريقيا.

وفي أغلب الأحيان، قاد هذه الحركات أقسام من الطبقات العليا أو الوسطى المحلية.

ولكن كان هذا يعني أن الطبقات الحاكمة في الدول المتقدمة تواجه خصم إضافي مثله في ذلك مثل الطبقة العاملة في بلادهم. لقد تحدت الحركة الوطنية فيما يسمى بـ"العالم الثالث" الدول الرأسمالية الإمبريالية في نفس الوقت الذي تحركت فيه طبقاتهم العاملة ضدهم.

لقد كان لهذا أهمية كبرى بالنسبة لحركة الطبقة العاملة في الدول المتقدمة، حيث عني ذلك أنه في نضالها ضد الرأسمالية كان لها حليف في حركات التحرر في "العالم الثالث".

وهكذا، فإن عاملا في شركة "شل" البريطانية - على سبيل المثال - له اليوم حليفا في قوات التحرير في جنوب أفريقيا والتي تناضل من أجل الحصول على الممتلكات التي في حوزة شل في بلادهم.

فإذا استطاعت شل أن تخيب آمال حركات التحرر في "العالم الثالث"، فهي ستصبح أكثر قوة عندما يتعلق الأمر بمقاومة مطالب العمال في بريطانيا.

هذه هي الحقيقة حتى إن لم يكن هناك لحركة التحـرر في بلد من بلاد العالم الثالث قيادة اشتراكية.

سوف يحدث هذا بالفعل حتى لو أرادت قيادتها استبدال الحكم الأجنبي بحكم الرأسمالية المحلية أو طبقـة رأسـمالية الدولة.

إن الدولة الإمبريالية التي تحاول تحطيم حركة التحـرر هذه هي نفس الدولة الإمبريالية التي تعد العدو الأكبر للعامل في الغرب.

ولهذا، أصر ماركس على أن:

"أي أمة تضطهد الآخرين لا تستطيع هـي نفسـها أن تكون حرة"؛ ولهذا أيضا فقد طرح لينين مسألة التحالف بـين عمال الدول المتقدمة والشعوب المضطهدة في العالم الثالـث حتى لو كان لديها قيادة غير اشتراكية.

وهذا لا يعني أن الاشتراكيين سيتفقون مع الطريقة التي يقود بها غير الاشتراكيين في دولة مضطهدة صراع التحرر الوطني (أكثر من اتفاقنا مثلا مع الطريقة التي يقود بها قائـد نقابي إضراب ما).

ولكن يجب أن نوضح قبل أي شيء آخر أننا نؤيد هـذا الصراع وإلاّ سوف نصبح جميعا مؤيدين لطبقتنـا الحاكمـة ضد الشعوب التي تظلمها.

يجب أن نؤيد النضال من أجل التحرر بدون شروط قبل أن يكون من حقنا انتقاد الطريقة التي يقاد بها هذا النضال.

ومع ذلك فإن الاشتراكيين الثوريين في دولـة تقهرهـا الإمبريالية لا يمكن أن يتركوا الأمور تسير هناك ضدهم، بل يجب عليهم أن يناضلوا يوما بعد يوم مع أفراد آخرين حول كيفية شن الصراع من أجل التحرر الوطني.

وحول هذه القضية، نجد أن أهم النقـاط المتعلقـة بهـا مذكورة في نظرية الثورة الدائمة التي طرحها تروتسكي. لقد بدأ تروتسكي أطروحته من خلال إدراكه أن الحركات ضـد الاضطهاد غالبا ما يبـدأها الأفـراد ذوي أصـول الطبقـة الوسطى أو حتى الطبقة العليا.

ويدعم الاشتراكيين مثل هذه الحركات لأنهم يهدفون إلى إزالة أحد الأعباء التي تثقل كاهل معظم الطبقات والجماعات المضطهدة في المجتمع.

ولكن يجب علينا أيضا أن نـدرك أن أبنـاء الطبقـات الوسطى والعليا أولئك لا يمكنهم الاستمرار في قيادة مثل هذه الصراعات لأنهم سوف يكونون خائفين من إطـلاق العنـان لصراع جماهيري حقيقي، وذلك في حالة أن يتحـدى هـذا الصراع ليس فقط الاضطهاد القادم من الخارج ولكن أيضـا قدرتهم هم ذاتهم على الحياة عن طريق اسـتغلال الطبقـات المستغَلة.

فعند لحظة معينة سنجدهم يفرون من الصـراع الـذي بدءوه هم أنفسهم، كما أنهم سوف يتّحدون -إذا كـان هـذا ضروريا - مع المضطهد الأجنبي من أجل سحق الصراع.

وعند هذه اللحظة ذاتها، إذا لم تأخذ قوات الطبقة العاملة الاشتراكية زمام قيادة التحرر الوطني فسوف تُهزم.

لقد أشار تروتسكي أيضا إلى حقيقة أخيرة وهي كـون الطبقة العاملة في معظم دول العالم الثالث مجرد أقليـة مـن السكان، وغالبا أقلية ضئيلة.

ولكن، على الرغم من ذلك، فهي تعتبر كبيـرة أيضـا بمعنى ما (على سبيل المثال تمثل الطبقة العاملة قـوة تقـدر بعشرات الملايين في دول مثل الهند والصين)، وهي غالبا ما

تنتج قسم ضخم من الثروة القومية مقارنة بحجمها. كما أنها تتركز بأعداد كبيرة جدا في المدن التي تعتبر مفتاح الحكم في البلد.

ولذلك، ففي فترات الاضطراب الثوري، تستطيع الطبقة العاملة قيادة كل الطبقات الأخرى المضطهدة والأخذ بزمام الأمور في البلد كلها. والثورة يمكن أن تصبح دائمة بداية من مطالب التحرر الوطني وانتهاء بالمطالب الاشتراكية. لكن هذا يمكن أن يحدث فقط في حالة تنظيم الاشتراكيين للعمال منذ البداية في الدولة المضطهدة على أساس طبقي مستقل، وهم في ذلك يدعمون بشكل عام حركة التحرر الوطني ولكن عليهم أن يكونوا على حذر دائما من الوثوق في قادتها من الطبقات الوسطى أو العليا.

الفصل الثاني عشر

الماركسية والنسوية

لقد كان هناك دائما اتجاهين مختلفين في مسألة تحرير المرأة:

النسوية والاشتراكية الثورية. والنسوية هي التأثير المهيمن على حركات المرأة التي اندلعت في الدول الرأسمالية المتقدمة خلال الستينات والسبعينات من هذا القرن.

تبدأ النسوية من فكرة أن الرجال دائما ما يضطهدون النساء، وبأن هناك شيئا ما في التكوين البيولوجي أو النفسي للرجال يجعلهم يعاملون النساء ككائنات أدنى منهم.

وهذا يؤدي إلى فكرة أن التحرر ممكن فقط بعزل النساء عن الرجال، سواء بالانفصال الكامل للنسويات اللاتي يبحثن عن "أساليب حياة متحررة" أو الانفصال الجزئي للجان النساء، الاجتماعات الانتخابية أو الأحداث التي تهم النساء فقط.

إن هناك الكثيرات ممن يدعمن هذا الانفصال الجزئي يدعون أنفسهن بنسويات اشتراكيات.

ولكن في السنوات الأخيرة، سادت داخل حركة المـرأة أفكار النسويات الراديكاليات عن الانفصال الكلي ، ثم انتهت الأفكار الانفصالية مرة بعد أخرى كجناح متطـرف بعـض الشيء إلى تأدية خدمات اجتماعية من نوعية خدمة اللاجئات مثلا.

ولقد قاد هذا الفشل المزيد من النسويات في اتجاه آخـر - اتجاه حزب العمال.

يؤيد هؤلاء فكرة أن وضع النساء في الأماكن المناسـبة لهن كعضـوات فـي البرلمـان أو مسـئولات نقابيـات أو مستشارات محليات سوف يساعد جميع النساء بعض الشيء على تحقيق المساواة.

أما تقليد الاشتراكية الثورية فهو يبدأ من مجموعة أفكار مختلفة تماما.

إن ماركس وإنجلز، وهما يكتبان في عام ١٨٤٨، قـد طرحا - أولا - فكرة أن اضطهاد المرأة لم ينبع من الأفكار الموجودة في عقول الرجال ولكن من تطور الملكية الخاصة ومعها ظهور مجتمع قائم على الطبقات.

وبالنسبة لهما، فإن النضال من أجل تحرير المـرأة لـم ينفصل عن النضال لإنهاء المجتمع الطبقـي بكاملـه - أي النضال من أجل الاشتراكية.

أشار ماركس وإنجلز كذلك إلى أن تطـور الرأسـمالية المبني على نظام المصنع قد أتى بتغيرات عميقة فـي حيـاة البشر، وخاصة في حياة النساء.

فلقد أُعيدت النساء مرة أخرى للإنتاج الاجتماعي والذي كن قد استُبعِدن منه تدريجيا مع تطور المجتمع الطبقي.

أعطى هذا للمرأة قوة كانت كامنة بـداخلها ولكـن لـم يسيطرن عليها من قبل أبدا.

امتلكت النساء كعاملات منظمات بشكل جماعي استقلالا أكبر وقدرة على النضال من أجل نيل حقوقهن.

ولقد كان ذلك متناقضا بشدة مع أسلوب حياتهن من قبل عندما كان دورهن الرئيسي في الإنتاج يتركز في الأسرة مما جعلهن يعتمدن تماما على رب الأسرة - الزوج أو الأب.

من هذا استنتج ماركس وإنجلـز أن الأسـاس المـادي للعائلة، وبالتالي اضطهاد المرأة، لم يعد موجـودا؛ كمـا أن

الذي منع المرأة من الاستفادة من هذا كان حقيقة أن الملكيـة ظلت في أيدي القلة.

واليوم، فإن العامل الهام الذي يبقي النساء مضـطهدات هو الطريقة التي تنظم به الرأسمالية نفسها - خاصـة تلـك الطريقة التي تستخدم بها الرأسمالية شكل معين للعائلة مـن أجل التأكد من أن عمالها يربون أطفالهم لكي يصبحوا الجيل القادم من العمال.

فهي إذن ميزة كبيرة، أي أنه في حـين أن الرأسـمالية تدفع للرجال لكي يعملوا - وبشكل متزايد للنساء أيضا - فإن النساء سيكرسن حياتهن وبدون مقابل للتأكد من أن أزواجهن صالحين للعمل في المصانع وأن أطفالهن سـيقومون بـنفس العمل في المستقبل.

أما الاشتراكية، على العكس من ذلك، سوف تعمل مـن أجل أن يتحمل المجتمع ككل الكثير من الوظائف التي تقـوم بها الأسرة والتي تثقل كاهل النساء.

ولكن هذا لم يعن أن ماركس وإنجلز ومن خلفوهم ظلوا يرفعون شعار "القضاء على العائلة".

فلقد كان مؤيدو العائلة قادرين دائما على تعبئة العديد من أكثر النساء عرضة للاضطهاد لتأييد مسألة العائلة، كما أنهم رأوا أن شعار "القضاء على العائلة" كان بمثابة رخصة لأزواجهم ليهجروهن هن ومسئولية الأطفال.

وفي مقابل ذلك، حاول الاشتراكيون الثوريون دائما توضيح أنه في مجتمع اشتراكي أفضل لن تجبر النساء أبدا على الحياة البائسة الضيقة الأفق والتي هي ما تقدمه العائلة لهن في أيامنا الحالية.

والنسويات طالما ما رفضن هذا النوع من التحليل.

فبعيدا عن الاقتراب أكثر من النساء واكتشاف مواطن قوتهن لتغيير العالم وإنهاء الاضطهاد الذي يمارس عليهن - وأيضا مواطن قوتهن الجماعية في مواقع العمل - قامت هؤلاء النسويات بالنظر إلى النساء كمعذبات. فنجد أن حملات الثمانينيات، على سبيل المثال، قد ركزت على قضايا مثل الدعارة والاغتصاب أو تهديد الأسلحة النووية للنساء وعائلتهن.

إن كل هذه الأمور تنطلق من نقطة أن النساء كائنات ضعيفة.

تبدأ النسوية من افتراض أن الاضطهاد يطغـى علـى الانقسام الطبقي.

إن هذا الافتراض يؤدي إلى نتائج لا تمـس المجتمـع الطبقي إطلاقا، ولكن كل ما تفعله هو تحسين وضع بعـض النساء - واللاتي يصبحن أقلية.

لقد انتهت حركات المرأة بان تسيطر عليها نساء "الطبقة الوسطى الجديدة" - مثـل الصـحفيات، الكاتبـات، أسـاتذة الجامعات والدرجات الأعلى من ذوي الياقات البيضاء.

أما العاملات من أمثال السكرتيرات أو من يعملن فـي الأرشيف أو مشغّلات الماكينات فقد تم استبعادهن.

إن مسألة تحرر المرأة تصبح حقيقة فقط خلال فتـرات التغيير الجذري والمد الثوري، وهي تصبح حقيقة ليس فقـط بالنسبة للأقلية ولكن لكل نساء الطبقة العاملة أيضا.

فلقد أنتجت ثورة ١٩١٧ البلشفية مساواة أكثـر بكثيـر للنساء عن ذي قبل مما عرف في العالم.

أصبح الحق في الطلاق والإجهاض ووسائل منع الحمل حرية متاحة للجميع.

كما أصبحت مسئولية الاهتمام بالأطفال والأعمال المنزلية ملقاة على كاهل المجتمع ككل .

وكانت هناك بدايات للمطاعم الجماعية والمغاسل والحضانات مما أعطى للنساء حرية أكبر بكثير للاختيار والتحكم في حياتهن.

وبالطبع، لم تنفصل هذه الخطوات التقدمية عن مصير الثورة ذاتها.

فلقد أدت المجاعة والحرب الأهلية وهلاك القسم الأعظم من الطبقة العاملة وفشل الثورة عالميا إلى الهزيمة الحتمية للاشتراكية في روسيا نفسها، وتحول بالتالي التحرك تجاه المساواة إلى عكسه تماما.

ولكن السنوات المبكرة للجمهورية السوفيتية أظهرت ما يمكن للثورة الاشتراكية أن تحققه، حتى في أشد الظروف سوءا.

واليوم، فإن احتمالات تحرر المرأة أفضل كثيرا في بريطانيا، وربما ينطبق هذا أيضا على دول رأسمالية متقدمة أخرى- فهناك عاملتان من ضمن كل خمسة عمال.

إن تحرر المرأة يمكن أن يتحقق فقط من خلال القوة الجماعية للطبقة العاملة.

وهذا يعني رفض الفكرة النسوية عن منظمات مستقلة للمرأة.

فمن خلال عمل العاملات والعمال معا كجزء من حركة ثورية موحدة، يمكن هنا فقط أن يتم تدمير المجتمع الطبقي ومعه اضطهاد المرأة.

الفصل الثالث عشر
الاشتراكية والحرب

اتسم القرن الحالي بأنه قرن الحروب.

لقد قتل عشرة ملايين شخص في الحرب العالمية الأولى، ٥٥ مليون في الحرب العالمية الثانية، و٢ مليون في الحرب في الهند الصينية.

أما الآن، فإن القوتين النوويتين العظميين في العالم، وهما أمريكا وروسيا، تمتلكان وسائل تدمير الجنس البشري بكامله عدة مرات.

إن تفسير هذا الرعب يعتبر من الأمور العسيرة بالنسبة لأولئك الذين ينظرون إلى المجتمع القائم كأمر مسلّم به.

فهؤلاء مدفوعون لاستنتاج أن هناك دافع فطري أو غريزي في البشر يقودهم للاستمتاع بالمذابح الجماعية.

ولكن الحقيقة هي أن الجنس البشري لم يعرف الحرب دائما.

لقد لاحظ جوردون شيلد عن أوروبا في العصر الحجري ما يلي:

"يبدو أن أهل الدانوب الأوائل كانوا قومـا مسـالمين، فأسلحة الحرب بالمقارنة بأدوات الصيادين لم تكن موجـودة في مقابرهم.

إن قراهم افتقدت للدفاعات العسكرية."

ولكن، "في المراحل الأخيرة للعصر الحجري الحـديث، أصبحت المعدات الحربية هي الأكثر ظهورا..."

إن الحرب لا تنتج عن عدوانية بشرية فطرية، بل هـي نتيجة انقسام المجتمع إلى طبقات. فمنـذ ٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سنة مضت وعندما ظهرت طبقة من أصحاب الأملاك لأول مرة، كان عليها العثور على وسيلة للدفاع عن ثروتها.

بدأت تلك الفئة في إنشاء قوات مسلحة ثم دولة أضحت منفصلة عن باقي المجتمع؛ وفيما بعد، أصبح نهب مجتمعات أخرى وسيلة ثمينة للمزيد من تراكم الثروة.

عني انقسام المجتمع إلى طبقات أن الحـرب أصـبحت مظهرا دائما للحياة الإنسانية.

لم تستطع الطبقات الحاكمة المالكة للعبيد فـي اليونـان القديمة وروما البقاء بدون حروب مستمرة والتي كانت توفر المزيد من العبيد.

وكان على ملاك الأراضي الإقطاعيين في العصور الوسطى أن يتسلحوا بقوة حتى يخضعوا عبيد الأرض المحليين، وأيضا ليحموا غنائمهم من ملاك الأراضي الإقطاعيين الآخرين.

وعندما بدأت الطبقات الرأسمالية الحاكمة الأولى في الظهور منذ ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة مضت، اضطرت هي أيضا اللجوء للحرب باستمرار.

لقد كان عليهم خوض حروب مريرة في القرون ١٦، ١٧، ١٨ و١٩ من أجل إرساء سيادتهم على بقايا الحكام الإقطاعيين القدماء.

نجد مثلا أن أكثر الدول الرأسمالية نجاحا مثل بريطانيا استخدمت الحرب لتوسيع ثروتها والوصول إلى ما وراء البحار، ونهب الهند وأيرلندا ونقل ملايين البشر كعبيد من أفريقيا إلى أمريكا، وهي في كل ذلك كانت تحول العالم كله إلى مصدر للنهب لنفسها.

وهكذا، فلقد بنى المجتمع الرأسمالي نفسه عن طريق الحرب.

فلا عجب إذن أن كل أولئك الذين عاشوا فيه آمنوا بأن الحرب هي شيء "حتمي" و"عادل" في نفس الوقت.

ومع ذلك، فالرأسمالية لا يمكن أبدا أن ترتكز بالكامـل على الحرب.

لقد أتت معظم ثروتها من خلال استغلال العمـال فـي المصانع والمناجم، وكان هذا شيئا يتعطل أحيانا عندما ينشب صراع داخل "البلد الأم" ذاته.

لقد أرادت كل طبقة رأسمالية وطنية السلام في بلـدها بينما تشن الحرب في الخارج.

ولذلك، فبينما شجعت تلك الطبقات التمسك بـ"الفضائل العسكرية"، هاجمت أيضا وبضراوة "العنف".

إن أيديولوجية الرأسمالية تمزج بطريقة متناقضة تمامـا وبإفراط العبارات العسكرية والسلمية.

أما في القرن الحالي، فقد أصبحت الاستعدادات للحرب أكثر أهمية للنظام من أي وقت مضى. كان الإنتاج الرأسمالي في القرن التاسع عشر مرتكزا على الشركات الصغيرة التي تنافس بعضها البعض، كما كانت الدولـة مجـرد مؤسسـة صغيرة تنظم علاقات تلك الشركات ببعضها وبينها وعمالها.

ولكن في القرن الحالي، ابتلعت الشركات الكبيرة معظم الشركات الصغيرة قاضية بذلك على المنافسـة داخـل كـل دولة. فالمنافسة بدأت تتجه نحو العالمية أكثر وأكثـر بـين الشركات العملاقة في دول مختلفة.

لا توجد دولة رأسمالية عالمية لتنظيم هذه المنافسة.

ولكن بدلا من ذلك، فإن كل دولة على حدة تبـذل كـل الضغوط الممكنة لمساعدة طبقـة الرأسـماليين بهـا علـى الحصول على ميزات ليتفوقوا على منافسيهم الأجانب.

فصراع الحياة والموت بين الرأسماليين المختلفين يمكن أن يصبح صراعا للحياة والموت بـين دول مختلفـة، كـل بترسانتها الضخمة من الأسلحة المدمرة.

أدى هذا الصراع مرتين إلى حروب عالمية.

كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية حروبا إمبريالية نتجتا عن خلافات بين تحالفات دول رأسـمالية مـن أجـل السيطرة على العالم.

ثم جاءت الحرب الباردة كاستكمال لهذا الصراع حيـث اصطفت فيها أقوى الدول الرأسمالية ضد بعضها البعض في الناتو وحلف وارسو.

بالإضافة إلى هذا الصراع العالمي، احتدمت العديد من الحروب الساخنة في أجزاء مختلفة من العالم.

عادة كانت هذه صراعات بين دول رأسـمالية مختلفـة حول مسألة من يجب أن يسيطر على منطقة معينـة، مثـل الحرب بين العراق وإيران التي اندلعت في عام ١٩٨٠.

ولقد أذكت كل القوى الرئيسية نيران الحرب ببيعها أكثر التكنولوجيا العسكرية تعقيدا لدول العالم الثالث.

إن هناك الكثير من الناس الذين يقبلون باقي خصـائص النظام الرأسمالي ممن لا تعجبهم هذه الحقيقة الكئيبة.

إنهم يريدون بقاء الرأسمالية ولكن ليس الحرب؛ ولذلك، فهم يحاولون إيجاد بدائل داخل النظام ذاته.فعلى سبيل المثال، هناك أولئك الذين يعتقدون أن الأمم المتحدة تسـتطيع منـع الحرب.

لكن الأمم المتحدة هي مجرد ساحة للصراع تلتقي فيهـا الدول المختلفة التي لديها الدافع للحرب.

فهناك، تقارن تلك الدول فيما بينها بين ما تملكه من قوة مثلهم في ذلك مثل الملاكمين الذين يتبارون قبـل المبـاراة.

وإذا كانت هناك دولة أو تحالف ما أقـوى مـن الأخـرى، فكلاهما سيرى لا جدوى حرب نتيجتها معروفة مقدما.

ولكن إذا كان هناك أي شك في النتيجة، فهم يعرفـون طريقة واحدة لتسوية القضية - ألا وهي الذهاب للحرب.

لقد كان ذلك صـحيحا بالنسـبة للتحـالفين النـوويين العظميين وهما الناتو وحلف وارسو.

وعلى الرغم من أن الغرب كان لديه التفوق العسـكري على الكتلة الشرقية، إلا أن الفجوة بينهما لـم تكـن كبيـرة بالنسبة للروس للدرجة التي تجعلهم يعتقدون أنهم في وضـع بائس أو لا أمل فيه.

ولذلك، فإن كلا من واشنطن وموسكو قد خططا للدخول في حرب نووية وكسبها بالرغم من وضوح حقيقة أن نشوب حرب عالمية ثالثة سوف تأتي على معظم الجنس البشري.

لقد انتهت الحرب البـاردة مـع انـدلاع الاضـطراب السياسي الذي وقع في أوروبا الشـرقية فـي عـام ١٩٨٩ وانهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه إلى جمهورياته الصغيرة في ١٩٩١.

أصبح هناك الكثير من الكلام بعد ذلك حول "نظام عالمي جديد" و "أرباح السلام".

في مقابل تلك الصورة، وعلى الرغم من كل هذا الكلام، رأينا تتابعاً لحروب بربرية - حرب الغرب ضد العراق والتي كانت حليفتهم السابقة، الحرب بين أذربيجان وأرمينيا في الاتحاد السوفيتي السابق، الحروب الأهلية المروعة في الصومال ويوغوسلافيا السابقة.

ورأينا أيضا أنه ما أن تُحلّ عداوة عسكرية بين قوى رأسمالية حتى تأخذ غيرها مكانها.

ففي كل مكان تعرف الطبقات الحاكمة أن الحرب هي وسيلة لزيادة تأثيرها ووضع غشاء الوطنية على عيون العمال والفلاحين.

من الممكن إذن أن تشمئز من الحرب وتخشاها بدون معارضة المجتمع الرأسمالي، ولكنك لا تستطيع أن تضع نهاية لها.

فالحرب هي النتيجة الحتمية لانقسام المجتمع لطبقات، وتهديدها لن ينتهي أبدا باستجداء الحكام الحاليين لصنع السلام.

يجب أن تنتزع الأسلحة من أيديهم عن طريق حركة تقاتل بها المجتمع الطبقي وتخلعه من جذوره مرة وإلى الأبد.

لم تفهم حركات السلام التي ظهرت في أوروبا وأمريكا الشمالية في نهاية السبعينات هذه الحقيقة. لقد حاربت تلك الحركات من أجل وقف إنتاج صواريخ كروز وبرشينج كما عارضت نزع الأسلحة من جانب واحد وحاربت من أجل التجميد النووي.

لكنهم في نفس الوقت اعتقدوا أن الحرب من أجل السلام يمكن أن تنجح بمعزل عن الصراع بين الرأسمالية والعمال.

ولذلك، فشلت هذه الحركات في تعبئة القوة الوحيدة القادرة على إيقاف الدافع تجاه الحرب:

الطبقة العاملة.

الثورة الاشتراكية فقط هي التي تستطيع إنهاء أهوال الحرب.